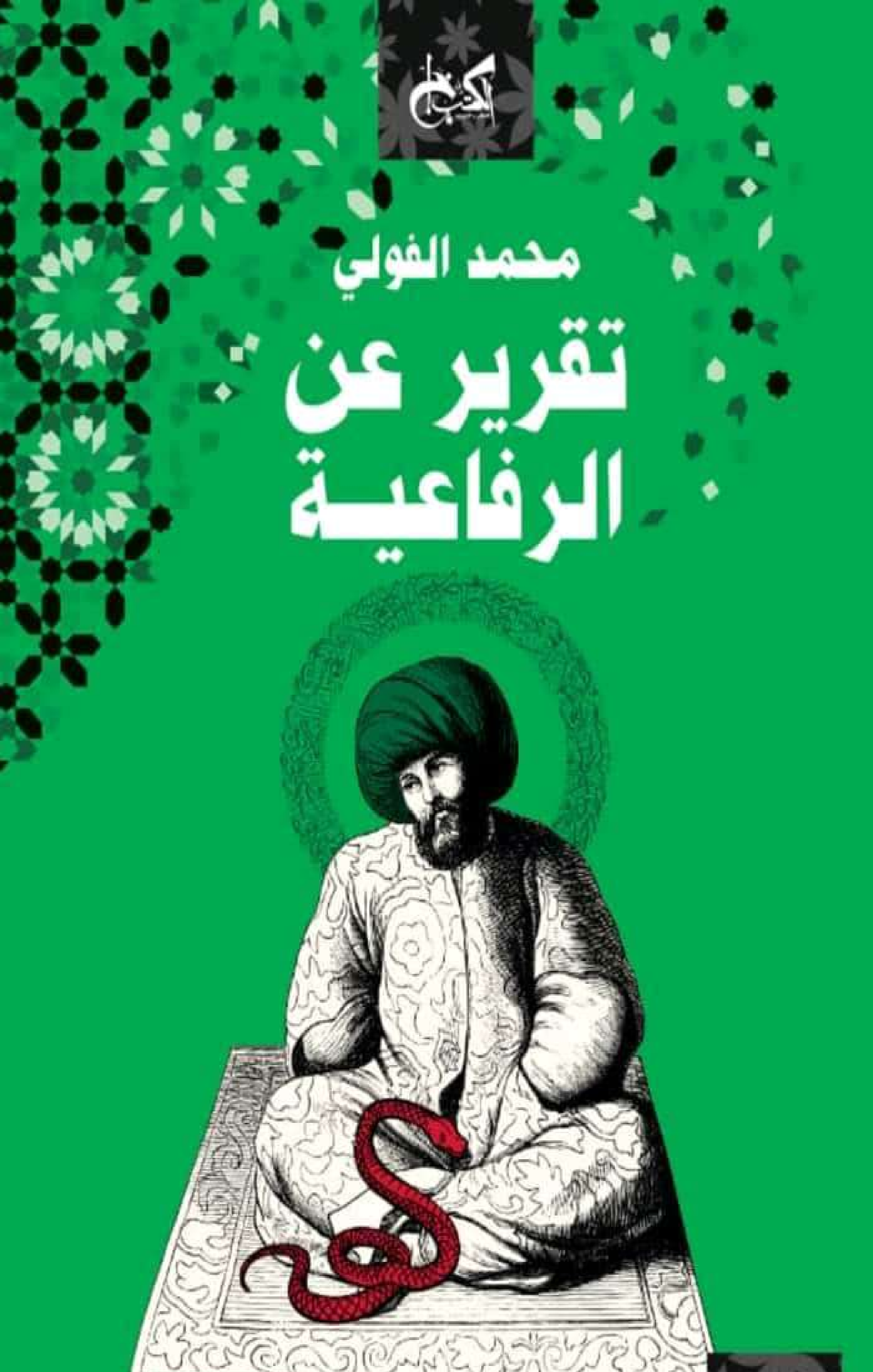

محمد الفولي
تقرير عن
الرفاعية
قصص



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

محمد الفولي

تقرير عن الرفاعية

قصص



تقرير عن الرفاعية
قصص
الطبعة الأولى: ٢٠١٩
رقم الإيداع: ٢٠١٨/١١٠٦٨
الترقيم الدولي: ٩-٠٧٠-٨٠٣-٩٧٧-٩٧٨
الغلاف: حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ ـ دجلة ـ المعادي ـ القاهرة.
تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ ـ ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com





فهرسة أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

الفولي، محمد
تقرير عن الرفاعية : قصص / تأليف : محمد الفولي. ـ ط١. – القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٩
١٨٢ص، ٢٠ سم
تدمك: ٩-٠٧٠-٨٠٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨
١ – قصص
أ- العنوان
رقم الإيداع:١١٠٦٨ الطبعة الأولى ٢٠١٩

قراءة هذه المجموعة لا تتأتى إلا عبر الترتيب
الذي كُتبت به

المؤلف

(١)

أبطال منسيّون

أغلق عينيّ لأرى

ما هو أعمق

وأشعر

بهم حينها يطعنونني

ببرود

بهذا النصل القديم:

الذاكرة

أنخل جونثالث

شاعر إسباني

ذكريات هوائية

كانت واحدة من نوبات الأرق الطويلة التي تنتابني كثيرًا. لا أفكر خلالها عادة في الماضي، فما حدث قد حدث. أتقلب على فراشي يمينًا ويسارًا. ما يقلقني دائمًا هو المستقبل وليس ما قد كان. لا فائدة. لن أتمكن من النوم. أخرج من غرفتنا حيث تركت زوجتي تغط في النوم. أتعثر أثناء مروري في الطرقة بإحدى الألعاب التي تركتها ابنتي ملقاة كالعادة. ملعونة تلك المكعبات! إذا لم تتوخ الحذر فهي في حالتها المفككة لها نفس تأثير الأسلحة البيضاء. أجمعها من على الأرض وأتوجه نحو غرفة المعيشة. أحاول استعادة طفولتي وتكوين الشكل المطلوب، لكني أفشل. لا أتمتع بأي مهارات يدوية حتى في أتفه الأمور. هذا عيب يمكن إضافته إلى قائمة عيوبي الطويلة. أفكر في هذا بينما أجلس على الأريكة التي لم نُحسن اختيارها، لكننا يجب أن نتحمل حشوها غير المريح، فالوضع المادي لا يسمح بتغييرها الآن.

أمسك جهاز التحكم وأقلب بين قنوات التلفاز. أكثر من ألف قناة ولا شيء يلفت انتباهي.. "قُتل ستة مدنيين".. "مع الشركة السعودية"..

"وكيف ها الحكي يا بن عمي.."، "فقط وحصريًا".. "You can't handle the truth"، حقًا لا يوجد شيء يمكن مشاهدته. أتذكر، ولا أدري لماذا أتذكر على غير العادة شيئًا من الماضي: صورة والدي مرتديًا جلبابه الأبيض. أرى وجهه الخمري المستدير، عينيه الخضراوين، صلعته المحاطة من الجانبين بشعره الرمادي وهو نفس لون شاربه المميز. أجد نفسي قد انتقلت فجأة إلى شقة العائلة القديمة في شارع إبراهيم الرفاعي. ها هو يجلس في الصالة وأمامه الطاولة البُنية بعد أن غطاها بالبطانية القديمة الخضراء، التي اصّفرت بعض أجزائها من أثر الحروق. وضع فوقها ملاءة بيضاء كبيرة رُبطت أطرافها الأربعة من الأسفل. هو يستعد لتقليد يوم الجمعة الشهير: كي الملابس بينما نشاهد التلفاز. لم يكن الحاج صلاح يفضل الاستعانة بخدمات المكوجي، فهو يحب أن يفعل هذا الطقس الذي قد يستمر قرابة ثلاث ساعات أو أكثر بنفسه، لم أدرك قط السبب وراء ربط أطراف الملاءة أسفل المنضدة. أعرف أن السبب وراء وضع البطانية والملاءة هو حماية الطبقة الخشبية للطاولة من الحرارة والحروق، لكن مسألة لفها على شكل هدية تظهر عقدتها من الأسفل ظلت لغزًا غامضًا.

ها هو يناديني الآن. أعرف ما هو قادم. لن تكتمل شعائر يوم الجمعة دون هذا المطلب. سيقولها مجددًا.. لقد قالها! أقبل على مضض كالعادة وأتوجه نحو باب الشقة وأفتحه، بينما يذهب أخي الأكبر ليفتح نافذة غرفتنا المطلة على المنور. أصعد الدورين الذين يفصلانا عن الباب الحديدي الأخضر، ذلك الذي يفصل الدورين الأول والثاني عن الدور

الذي يقطنه صاحب العمارة، الحاج أبو شعبان. أدق عليه بطرف المزلاج الحديدي الأمامي كما جرت العادة. يأتي صوت وقع خطوات أحدهم يسير بتثاقل. لا بد أنها زوجته. تُدعى "الست". عرفت اسمها بعد انتقالنا من البيت القديم بعدة سنوات، ففي تلك الفترة كانت بالنسبة لي هي فقط "أم شعبان". أخبرها برغبتي في الصعود للسطوح. تفتح لي الباب مبتسمة لكن في ضيق. أصعد السلالم التي تفصل الدور المخصص لعائلتها عن السطوح. ألتقط أنفاسي وقبل توجهي نحو المنور، أقف في وسط السطوح، محاولاً رؤية الأفق، لكني- وسط البيوت المتراصة والمحيطة بنا من كل جانب - لا أرى شيئًا. لم أر الأفق. لا أرى الأفق. ربما لن أراه أبدًا.

أستجمع أعصابي، فأنا لم أر الأفق لكن أعرف ما هو قادم؛ ستكون ربع ساعة أو نصف ساعة أخرى مليئة بالمحاولات المستميتة غير المجدية لتعديل وضع الهوائي أو "الإريال" كما كنا نقولها بالعامية، لكي يلتقط التلفاز كل القنوات المتاحة -وهي ليست ألف قناة- بل الأولى والثانية والثالثة وبعض قنوات الأقاليم و "Nile TV"، بجودة واضحة.

سيتوقف الحاج صلاح عن الكي ويجلس على أريكة طقم الأنتريه الأسيوطي، الذي رغمًا عن كل عيوبه أعرف الآن أنه مريح أكثر من الأريكة "المودرن" التي اخترناها أنا وزوجتي لشقتنا الجديدة بناءً على طابعها الأنيق. سيمسك جهاز التحكم ويبدأ في التقليب بين قنوات التلفاز الموضوع في الصالة، بينما سيقف شقيقي الأكبر أسفل نافذة غرفتنا المُطلة على المنور وأنا فوقهم بثلاثة أدوار أحرك الهوائي يمينًا

ويسارًا بحرص، بناءً على تعليمات شقيقي الذي ينقلها إليّ صارخًا في فراغ المنور معتمدًا على توجيهات الحاج صلاح ورؤيته لجودة الصورة. سأصاب بالملل بعد مرور ١٠ دقائق، ها أنا أفعلها: ألف الهوائي يمينًا ويسارًا بجنون. لا بد أن الصورة تهتز: جودة مثالية، جودة سيئة، جودة مزرية، جودة معقولة ،وفجأة، أترك الهوائي. يأتي النداء من أخي ليطالبني بوقف هذا "التخلف"، هو يعرف ما الذي أفعله، فهو بنفسه سبق له القيام بالأمر. يُدركنا اليأس، فلا يمكن ضبط صورة كل القنوات العشر، وجميعنا قد بُح صوته من كثرة الهتاف، لا بد أن أمي ستطلب الآن من أبي السماح لي بالنزول "عشان الواد والهوا وصدره". فعلتها بالفعل. "براءة يا ريس". أستقبل هتاف أخي بسعادة وأستعد للنزول. كنت قد شاهدت برنامج عالم الحيوان فتعلمت الكثير عن الحية ذات الأجراس، وقريبا سيبدأ "الفيلم الأجنبي" على القناة الثانية. لكن حينما أهبط وأفتح الباب، لا أجد نفسي في شقتنا القديمة الكائنة بشارع إبراهيم الرفاعي.

أنا في غرفة إحدى المستشفيات. أكره المستشفيات. أمقت الأطباء. أبغض المرض. أبي لم يعد أبي. لا أعرف متى انتهى من كي ملابسه ولا متى فقد وجهه لونه الخمري ولا كيف ذبلت عيناه الخضراوان أو سقط شعره الرمادي وأين ذهب شاربه. لم أعد طفلاً، ففي الدقائق القليلة التي استغرقها هبوطي من السطوح أصبحت شابًا في سنتي الجامعية الثالثة. انتهيت للتو من محاضراتي وتوجهت كالعادة لرؤية أبي. كان السرطان قد تمكن منه وأحاله إلى صورة ضعيفة وهزيلة من النسخة التي

عرفته عليها، النسخة التي رغمًا عن قوتها -بل وربما في بعض الوقت قسوتها- كانت تحمل قدرًا كبيرًا من الحب والطيبة.

لا ادري لماذا لم أقدم طيلة حياتي، بل وخصوصًا طيلة فترة مرضه، الذي جرى تشخيصه في وقت متأخر -فلم يقدر على مقاومته سوى ثلاثة شهور- على معانقته وتقبيله وإخباره بأنني اسامحه على أي عقاب وجهه لي. لا أدري لماذا لم أطلب منه الغفران على عدم إدراكي أنه سيرحل قريبًا، على تمنياتي أحيانًا ان اكون قد وُلدت في كنف عائلة أخرى، على تلك المرات التي كنت أدير فيها الهوائي بجنون فوق السطوح لأؤخر واحدة من مُتع يوم الجمعة بالنسبة إليه.

أغلق التلفاز وتنساب دموع قليلة من عينيّ، أمسك مكعبات ابنتي ذات الأربع سنوات مجددًا وهذه المرة أنجح في تكوين أحد الأشكال المطلوبة، أتوجه نحو غرفتها، أتأملها تحتضن دميتها المفضلة بينما تغط في النوم، بأنفاس مرتفعة مثل والدتها بينما ترتعش جفون عينيها الضيقتين مثلي، أطبع قبلة بحرص على وجنتها، أخرج من حجرتها، أتوجه لغرفتي، وألقي بجسدي بجوار زوجتي النائمة وأغمض عينيّ. حينما أفتحهما في صباح اليوم التالي، لا أجد نفسي في شقتي، بل في حجرة بمستشفى. تقف أمامي فتاة بيضاء جميلة. يتغير لون شعرها بين البني والأصفر وفقًا لحركتها أسفل الإضاءة الكئيبة. هي حزينة. لها عينين ضيقتين، مثل عينيّ. تتقدم نحوي وتطبع قبلة على وجنتي. تعانقني وتخبرني بأنها تحبني، لكني لا أقوى على الرد عليها. أشم من بعيد رائحة كي الملابس وأسمع صوت الحاج صلاح يطالبني للمرة

الأخيرة بالصعود وفي الخلفية يتردد صوت جلجلة ذيل الأفعى ذات الأجراس.



عنتر عضمة

لم أبرع قط في عقد الصفقات حتى قابلته. هو أول من لقنني مبدأ "إذا كنت تجيد أمرًا ما، فلا تفعله مجانًا"، حتى دون أن ينطق هذه العبارة. لكي أحكي قصتنا، أحتاج لجمع أشلاء حقبة مر عليها ستة عشر عامًا تقريبًا. هي سنوات لا أكن لها أي مشاعر سواء بالسلب أو بالإيجاب وتشغل حيزًا ضيقًا في ذاكرتي، بل هي مدفونة داخل عقلي، لذا سأضطر لتجريفه عبر هذه الكلمات التي أكتبها لأنتشل رفاتها وأنقاضها، لأبث فيها الروح من جديد، لأعيد تشكيل الأماكن وهو أمر لا يتأتى إلا عبر إعادة تشكيل الزمان، لكن ذلك الأخير ليس له هيئة واضحة، كثافته تتمدد وفقًا لهواه، بل وقد تجعل ما كان بعيدًا ذات يوم يبدو أدنى من حبل الوريد، وما كان قريبًا في غاية البُعد.

في البداية عجزت ذاكرتي الضعيفة عن استدعاء كل التفاصيل، لكن بعد وميض سريع يغشي البصيرة، أعقبه تشوش مربك، بدأت ملامح الصورة الأولى تتجلى: شاب في منتصف العشرينات تقريبًا، يقف مستندًا على سور مدرسة بينما يلهو بسكين في يده اليسرى المزينة

بسوار على هيئة أفعى. هو حليق الرأس، ووجهه مليء بالندوب، ينفث بتلذذ دخان سيجارته ثم يبتسم بعدها بلا داع ليظهر الفراغ الذي خلفه فقدان سنتيه الأماميتين.

يتخلى الزمان عن انكماشه ويمنح ذاكرتي جرعة منشطة قبل أن يتمدد وينبسط لتتراكم الصور والمشاهد والتفاصيل وأدرك تمامًا كيف سأبدأ في حكاية قصتي معه، فلا سبيل لسرد الأحداث سوى العودة إلى ذلك اليوم الذي أقنعت فيه والديّ بعد نقاش محتد بأنني لا أرغب إكمال تعليمي في المدرسة الخاصة التي قضيت فيها عشر سنوات: من الروضة وحتى الصف الثالث الإعدادي، فقد حان الوقت لأخرج من القمقم وأتعرف على عالم جديد. هما ليسا في حاجة لتكرار نفس النقاشات الطويلة والمملة التي خاضاها مع أخي الأكبر، وانتهت باستمراره في نفس المدرسة التي دخلها طفلاً وخرج منها نحو كلية الصيدلة، كما أن تخفيف عبء المصروفات الثقيلة للمدرسة الخاصة كان خيارًا جيدًا واقتصاديًا للعائلة، ضمنت عبره خروجًا آمنًا دون أي شروخ أسرية.

تملكتني رغبة عمياء في القضاء على براءتي، وحماقتي، وكل الصفات التي يراها الآباء "حميدة". كان سبيلي لتحقيق هذا هو التخلص من قيود مدرسة (بورسعيد الخاصة)؛ قربها من المنزل ووجود رقيب عائلي بها، للانطلاق نحو ما رأيته رحابًا أوسع، لذا كان خياري هو

مدرسة (عمر بن الخطاب) الواقعة بشارع الأربعين. توجب عليّ يوميًا الخروج من بيتنا القديم بشارع إبراهيم الرفاعي، بالقرب من البوابة الخلفية لستترال المطرية، قطع المسافة القصيرة التي تفصله عن شارع الترولللي، والذي قيل لي إن اسمه هكذا لأنه -قديمًا- كانت تمر به وسيلة نقل مُندثرة لم أرها قط تحمل نفس المسمى، ثم السير في امتداد شارع عزت، وصولاً لشارع المشروع، فعبوره لبدء الرحلة في شارع الأربعين المترب، لأصل لوجهتي المنشودة، البعيدة عن وسائل وأنماط الرقابة كافة، حيث يمكنني تحقيق رغباتي في التعرف على العالم الحقيقي والقضاء على حماقتي في وسط لا يعرف أنني في الحقيقة أحمق منذ الصغر.

كانت البداية صعبة، تمامًا مثل المحاولة الأولى لاسترجاع تفاصيل قصتنا. دائمًا ما تكون الأمور معقدة بالنسبة للمُستجدين، صحيح أنه كان العام الدراسي الأول للكل في (عمر بن الخطاب)، لكن يُنظر لأبناء المدارس الخاصة دائمًا كمخنثين مدللين قادتهم ظروف خاطئة إلى مصير سيعجزون عن الصمود فيه. تزداد صعوبة المسألة غالبًا إذا كان هؤلاء المخنثون يعانون من السمنة ويرتدون نظارات، لكن بعد مشاجرتين أو ثلاث، تبدأ في عقد بعض الصداقات واكتساب نوع معين من الاحترام، ذلك الذي تحصل عليه بعد إثبات أنك تخطيت مرحلة التدليل ولم تعد مخنثًا.

بعد مرور شهر على بداية العام الدراسي رددت أفواه الجميع اسم واحد فقط: "عنتر عضمة"، مجرد ذكر أنه يقف مستندًا إلى السور الخلفي

للمدرسة، كان كفيلاً بتراجع الكثير من الطلبة عن خطط "التزويغ"، حتى أنني حينما أفكر حاليًا في الفترة التي بسط فيها سلطانه قبل أن يحدث ما حدث وتنتهي علاقتنا، أراه كعلاج أثبت -دون قصد- فاعليته في مواجهة ظاهرة الهروب من المدارس؛ كان يجب أن تتحلى بشجاعة كبيرة لتقفز من فوق السور وأنت تعلم بوجوده، لأنك إما ستتعرض للسرقة أو "التثبيت" -كما يُطلق على هذه الممارسة تحديدًا- وبالتالي فقدان ساعتك، أموالك.. ربما حذائك، أو أحيانًا للضرب.

صيغت الكثير من الأساطير الحضرية حول سبب تسميته، فقيل إن اسمه الحقيقي هو عنتر أما لقب "عضمة" فاكتسبه بعد شجار مع أحد منافسيه استخدم فيه عظمة لضربه، وقيل أيضًا أنه هو كان من ضُرب بها لهذا فقد سنتيه الأماميتين، بل وذهب البعض إلى أن أيًا من هذا لم يحدث وكل ما في الموضوع أنه أثبت دائمًا جرأته وأن "عظمه ناشف"، لكن على أي حال لم تبدأ علاقتنا بسرقة عند السور الخلفي للمدرسة، فكنت لا أزال سمينًا في عامي الدراسي الأول بـ(عمر بن الخطاب)، وكانت مسألة قفزي من على السور تتطلب جهدًا كبيرًا، ليس من طرفي فقط، بل بالنسبة لصديقيّ في تلك الفترة محمد حسن وحمد لرفع جسدي القصير المتكور نحو الأعلى، لهذا كان خياري الدائم في أيام "التزويغ" خلال عامي الأول هو عدم الذهاب للمدرسة من الأساس، والتوجه مباشرة إلى "عم زينهم".

كانت "المؤسسة" التي يديرها "عم زينهم" جديرة بالاحترام، بل وإن ما شاهدته فيها من انضباط كان أمرًا مذهلاً، هو مخزن قديم في

[illegible] بجوار العمارات القريبة من (عمر بن الخطاب). يفتح أبوابه يوميًا في السادسة والربع صباحًا -قبل أي مدرسة- لاستقبال الصبية والمراهقين الذين يلتزمون بتعليماته بحذافيرها، لا يقدمون على السباب أو الصراخ بصوت مرتفع كما تنص قواعده، يجلسون -لكي يتركوا صورة طريفة- على مصاطب تتراص في مصفوفة منضبطة أمام ثمانية تليفزيونات تتصل بها ثمانية أجهزة (بلاي ستيشن). عقدتُ الكثير من الصداقات في تلك الفترة مع طلبة من نفس المدرسة ومن مدارس مختلفة، وأحيانًا مع شباب جامعيين، وأرباب عائلات، بل ومع "عنتر" صاحب المحل نفسه، الذي وجد لنفسه مصدر دخل إضافي عن طريقي دون أي مساحة [illegible] أو ضرب أو تثبيت.

تظهر هيئة "عم زينهم" الآن أمام عينيّ بصورة فائقة الجودة، بل بدقة 4K، بشرته الخمرية، شاربه الرفيع، وجهه المربع، [illegible] شعره اللامع المصفف نحو اليمين، وسيجارته الطويلة التي يلتهمها بشغف رغمًا عن نوبات السعال المتكررة. أتذكر الآن اختلاف صوته وهو يطالبني بترك اللعب والقدوم للحديث مع "عنتر".

كنت أخوض مباراة مع صديق يُدعى إبراهيم وفقًا لقواعدنا الثابتة في تلك الفترة: من يخسر يسدد ثمن المباراة أو "على اللي يشيل"، كما نقول. كنت ماهرًا للغاية حينها، خاصة في لعبة (Winning Eleven 4)، التي أُطلق عليها مجازًا بين أبناء جيلنا "المصرية"؛ لأنها كانت أول لعبة كرة قدم على جهاز (البلاي ستيشن) تضم منتخب

مصر. هكذا وعبر مهارتي كنت أتمكن من الصمود في أيام "التزويغ" من المدرسة إلى تلك المؤسسة المنضبطة بمصروف يومي قدره جنيهان من السابعة صباحًا وحتى الثانية عشرة والنصف ظهرًا، وربما لهذا لفتُ انتباه "عضمة" الذي طلب من عم زينهم أن يتعرف عليّ "عشان ممكن نعمل مصلحة حلوة".

كانت تفاصيل الصفقة واضحة وبسيطة والسبب الرئيسي لقبولها هو وجود "عم زينهم" كضامن: سأستغل مهارتي لجني المزيد من النقود للجميع. سأمثل "عضمة" في مراهنات أمام منافسين آخرين سيجلبهم هو أو مدير مؤسستنا الترفيهية الصغيرة على أن توزع الحصص بالصورة التالية: ٦٠% للمراهن الذي يفوز لاعبه، ٣٠% لصالح عم زينهم و١٠% لصالح اللاعب الفائز. لم يخسر "عضمة" رهانه عليّ طوال عام دراسي كامل سوى مرتين أو ثلاث، وباتت لدي سيولة مالية لم أكن أتخيلها في مثل هذه المرحلة العمرية. كنت حريصًا ألا يتم كشفي من هيئة الرقابة المالية في المنزل، لدرجة اقتسامي أحيانًا نسبة الـ١٠% مع منافسي الخاسر أيًا كانت هويته، لكن هذا لم يمنعني من الاستمتاع بمكاسبي عبر الذهاب لـ"حفلات الطلبة" في سينمات وسط البلد، واختراع مواعيد وهمية لحصص الدروس الخصوصية لإيجاد سبيل للخروج وإنفاق ما تيسر من مكاسبي.

لم تتعمق علاقتي بـ"عضمة" كثيرًا على الرغم من المكاسب المشتركة الكبيرة التي حققناها، فقد وقف حائلاً أمام محاولاتي البائسة لمحاكاة عالمه أكثر من مرة، مثل تلك المرة التي فزنا فيها برهان قدره ١٠٠ جنيهًا

وكانت أمارات السعادة تبدو على وجهه -لا أدري حقًا إذا كان هذا بسبب المكسب أم "الاصطباحة" التي كان قد انتهى من تدخينها- قررت بكل سذاجة سؤاله عما إذا كان يمكنه تعليمي كيفية "تسقيف الموس" ليرفض بحزم يتعارض مع حالته المزاجية "أنت في الأول والآخر ابن ناس، مش ابن كلب زيي". صحيح أن علاقتنا لم تتعمق واعتمدت على "المهنية" في أغلب جوانبها، لكن ظهوري معه أكثر من مرة بالقرب من المدرسة وتناقل الأمر على الألسن بين الطلبة، وفر قدرًا من الحماية التي كان يحتاجها ابن المدرسة الخاصة المدلل حتى ينهي عملية تحوله وانخراطه في البيئة التعليمية الحكومية.

في نهاية الصف الأول الثانوي، كنت قد ضقت ذرعًا من المسألة، ليس فقط بسبب الخطورة التي كان ينطوي عليها الأمر واضطراري لإنفاق جانب كبير من الأموال التي كنت أجنيها لـ"شراء" أيام الغياب -كما كنا نقول- من شؤون الطلبة، فمدرسة (عمر بن الخطاب) كانت، وأعتقد أنها لا تزال، غاية في الحقارة: يُمكنك مسح أيام غيابك برشوة شؤون الطلبة ماديًا أو بالقيام بأعمال مهينة مثل تنظيف الفصول، الحمامات، مكاتب المدرسين، أو حوش المدرسة، وبهذه الطريقة يُصبح عدم وصول إنذارات الفصل أو استدعاء ولي الأمر مضمونًا. صارت المسألة تشكل ضغطًا نفسيًا هائلاً عليّ في ظل ظهور وازع ديني بات ينفرني من طريقة تحقيق هذا المكسب السهل، علاوة على اقتراب فترة الامتحانات.

تراجع حضوري في "المؤسسة الزينهُمية" وبالتالي تدنى الدخل الذي كان يحققه "عضمة" وبدأ ظهوره بجوار السور الخلفي للمدرسة

يتكرر بصورة أكبر، كان كل منّا يكتفي بالنظر للآخر فقط من بعيد وفي ثاني أيام الامتحانات قال لي أحدهم إنه يجب علي توخي الحذر لأن عنتر "ناوي لي على نية".

تتجلى صورته الآن أمامي: شاب في منتصف العشرينات تقريبًا، يقف مستندًا على سور مدرسة بينما يلهو بسكين في يده اليسرى. هو حليق الرأس، ووجهه مليء بالندوب، ينفث بتلذذ دخان سيجارته ثم يبتسم بعدها بلا داع ليظهر الفراغ الذي خلفه فقدان سنتيه الأماميتين، يلقي عقب السيجارة ويتحرك نحو الأمام وهو يتثاءب، وفجأة يهاجمه رجلان من الخلف، يُسقط أحدهما سكينه ويضربه الآخر بكعب مسدسه على رأسه، تنساب الدماء على وجهه ويلتفت في ذهول بينما يسمع عبارة "عامل فيها بلطجي يا روح أمك"، يحاول الانقضاض على أحدهما، لكنه يتفاداه ويعرقله قبل أن يمسكه الآخر ويقيده في عمود الإنارة "عشان كل عيال المدرسة يشوفوا الدكر اللي كان مخوفهم".

كل الأمور واردة في مدرسة (عمر بن الخطاب)، ومنها أن تجد في لجنة امتحاناتك أميني شرطة في أواخر العشرينات يخوضان اختبارات الصف الأول الثانوي، آملين في إنهاء هذه المرحلة والانتساب لكلية الحقوق مستقبلاً والحصول بهذه الطريقة على ترقيات تنقلهم لمصاف الضباط. بالطبع قد يسمع أمينا الشرطة حكايات الطلاب عن الرعب الذي يبثه "عضمة" في نفوسهم. لن يمانعا بكل تأكيد أداء "نمرة" تعجب الجمهور وعرض هزيمة عنتر على مسرح السور الخلفي للمدرسة. هل أخطأت حينما قصصت عليهما أسطورة "عنتر عضمة" في يوم الامتحان

الأخير؟ لا أدري ولكن كل ما أعرفه فقط أنني ـمهما حدث ـ ووفقا لكلماته "عيل بن ناس"، ولا يمكن لـ"أولاد الناس" تحمُّل العيش بعلامة غائرة على وجههم تنتج عن عقاب أخبرني أحدهم بأنه قد يجهزه لي.

مرت ستة عشر عامًا تقريبًا على ذلك اليوم، اليوم الذي شاهدت فيه "عنتر" يدمي بعدما غلبت الكثرة "الميري" ـالمتدثرة بملابس مدنيةـ الشجاعة، والسبب الوحيد الذي دفعني لتذكره هو أنني رأيته أمس. تقدم سنه، لكنه لا يزال محتفظًا بملامحه الأساسية المشوهة.. رأيته هناك أمام محطة مترو عين شمس، يتشاجر مع سائقي توكتوك، شاهرًا في وجهيهما السيف الذي أخبرني ذات مرة أنه يمتلكه. يعرف الجميع أنه أداة تهديد فقط ليس إلا، لكن الكل يخشاه. لم أتوقف لمشاهدة كيف ستنتهي الأمور. لا أعرف إذا ما كان خوفًا من أن يتعرف عليّ، أم لأنني كنت متعجلاً العودة إلى المنزل، لكن كل ما أعرفه أنني بعد عدة ساعات من دخولي للبيت، فتحت جهاز الكمبيوتر، وأمسكت بذراع التحكم الموصول به وقررت ـلأول مرة منذ عامينـ محاولة اللعب على وقع ذلك اللقاء، لكني لم أعرف طعم الفوز وخسرت الرهان.

الحـاوي

أرقد على فراش المستشفى وأعرف أنها ستكون ليلة طويلة. لا يقلقني الألم، فلدي ثقة أنه مؤقت؛ كل الأمور في النهاية إلى زوال. لست منزعجًا من إيداعي في وحدة للعناية بالقلب بعد شهور قليلة من إتمام عامي الثلاثين، فهوايتي الدائمة هي قتل نفسي ببطء. ما الذي قاله الطبيب في تشخيصه المبدئي؟ عدم انتظام في ضربات القلب؟ حسنًا.. كان الأسبوع الأخير مليئًا بالأحداث الفوضوية ولا بد من وجود تأثير لما يقع في الخارج على ما يحدث في الداخل.

تتسلل رائحة دخان السجائر التي يلتهمها أحدهم -ولا أدري كيف يحدث هذا في مستشفى للقلب- لكن كل هذا لا يضايقني: لا دخان السجائر ولا مرارة الفشل للمرة الألف في نشر ترجمتي الأدبية الأولى، ولا الألم الذي يأتي في صورتين مختلفتين: الأولى كعقدة شائكة تتكور داخل صدري، توخزني أسنانها المدببة مع كل حركة، والثانية كأسياخ حديدية ملتهبة تخترق قفصي الصدري من الخلف. تتحرك هذه الأسياخ أمامًا نحو العقدة المدببة قبل أن تعود أدراجها للخلف لتغرس أسنانها من

جديد في كتفي. كل ما يشغل بالي في الوقت الحالي هو ضرورة قدوم عبد المعطي.

ـ يا عبد المعطي! يا عبد المعطي!

أسمع هذا النداء يتردد منذ ١٠ دقائق حتى الآن. أسمعه يأتي مصحوبًا بآهات زميلي في الألم تلك الليلة. لم أرَ وجهه من خلف الستار الذي يفصل سريرينا، لكن صوته يدل على أنه رجل مسن. لن أقول إنه يصارع الموت بل يسعى لاحتضانه؛ كي يصحبه في رحلة أخيرة نحو مكان تستكين فيه الأجساد بعد تداعيها والأرواح بعد انطفائها. يأتي عبد المعطي متململاً، فهذه هي المرة الرابعة خلال الساعة الأخيرة التي يناديه فيها زميلي المسن ليعدل من وضعه، والسبب بلا شك هو قرح الفراش، فأنا في النهاية شاهدت ما قد تفعله بالبشر في أيامهم الأخيرة؛ اختبرت هذه المرارة في المنعطف الأخير من رحلة الحاج صلاح الدنيوية قبل أن يتمكن السرطان من قطع التيار عن روحه لتنطفئ بلا رجعة.

ـ يا عبد المعطي! يا عبد المعطي!

أنا من أناجيه هذه المرة. أخبره أن الألم قد اشتد وأشكو له عجزي وعدم مقدرتي على النوم، يخبرني أنه سيعود بعد عشر دقائق، لكنه يأتي بعد نصف ساعة اكتسبت فيها مناجاة وآهات زميلي بالغرفة أبعادًا يائسة. طلب مني أن أمد ذراعي وحقن القنينة الطبية بشيء عرفت لاحقًا أنه كان جرعة من المورفين شعرتُ بها تنطلق بسرعة مذهلة في دمائي، كأنها إحدى سيارات سباقات (فورمولا١) التي يجب أن تحقق أفضل زمن

لتسبق الألم والأرق والإحباط، هم باقي منافسيها المنتشرين داخل جسدي. هناك حالة من الدوار تصيب رأسي وخدر خفيف يتملك أوصالي. يعم شعور عجيب بالسلام كينونتي. أرى نفسي الآن من منظورين: منظور المتفرج ومنظور عينيّ، عبر الأول أرى جسدي يرتفع من على الفراش لتتفكك كل الأسلاك والمحاليل الموصولة به، لكنه فجأة يتضاءل ويتكور ليتخذ هيئتي الطفولية، تحديدًا وأنا في التاسعة، قبل أن يهبط جالسًا -بعد أن يتبدل المكان- على العشة المُربعة الصغيرة التي وُجدت ذات يوم في شرفة شقتنا القديمة بشارع إبراهيم الرفاعي. عبر المنظور الثاني أرى سقف غرفة المستشفى يقترب ويقترب. أعبره كأنه سطح أحد الأنهار. أعتقد أنه نهر الزمان. أرى السماء، لكني لا أجد شمسًا أو نجومًا، فقط مجموعة من غيوم فبراير الكئيبة. أواصل اقترابي منها. أعتقد أنني سأعبرها هي الأخرى لأسبر أغوار السماوات الواقعة خلفها، فجأة أشعر بجسدي يهبط ويتضاءل ويتكور، لأجد نفسي جالسًا فوق العشة المُربعة الصغيرة في شرفة شقتنا القديمة بشارع إبراهيم الرفاعي.

- بيهون عليا لحم جسمي عشان أأكل ولادي من الحلال!

أشاهد الحاوي ينطق بهذه العبارة قبل نمرته التالية. رفض أبي الواقف بجانبي في الشرفة أن أهبط لمشاهدة العرض في الشارع، ربما كان محقًا، فمتابعة خدع الحاوي من الدور الأول وأنا أجلس على مقعدي فوق العشة المربعة الصغيرة تمنح المتفرج الصغير منظورًا أفقيًا كاشفًا لن

يحظى به من الأسفل، كما أن الحاج صلاح لا يقبل أن يختلط أي من أبنائه بـ"الصّيع" الموجودين في الشارع، لكن المشكلة أنني كنت أعرفهم جميعًا: فها هي سناء تقف متجهمة لمتابعة ما سيحدث، يكسو الحزن ملامحها بعد القبض على حبيبها هلال، وها هو محمود نجل عم عبده المِبلّط ينظر لنا بسخرية، بينما يقف رامز أسفل باب العمارة المقابلة، فيما اختارت والدته، أم سامح، التي لم أعرف قط اسمها الحقيقي، متابعة الأمور من الشرفة وبجوارها ابنتها فاتن التي كانت ترتدي -كالعادة- قميص النوم الأحمر.

هي ثاني مرة خلال الشهور الستة الماضية التي يأتي فيها الحاوي إلى شارع إبراهيم الرفاعي. بدأ عرضه كما فعل في المرة السابقة بنفث النيران، وأعقبه تكسير الزجاج بفمه، ثم ثنى قضبان الحديد بيديه وهو الآن يُقدم على أداء نمرته الأخيرة. خمنت هذا من قرع الطفل الذي يصحبه على طبلته لذلك الإيقاع الذي يسبق الحركات الخطرة في السيرك. يجلب مساعده اللوح الخشبي السميك الذي غرُس فيه أكثر من مئة مسمار تنظر رؤوسها المدببة لأعلى. تزداد سرعة قرع الطبول بينما ينزع الحاوي ذو الجسد النحيف قميصه ويتوجه نحو اللوح ليرقد فوق المسامير قبل أن يطلق هتافه مجددًا:

- بيهون عليا لحم جسمي عشان أأكل ولادي من الحلال.

ينهض من فوق اللوح وينظر الجميع في ذهول إليه، هناك أكثر من مئة وخزة أحدثتها المسامير في ظهره، لكن لا وجود لدماء أو جروح. يتوجه نحو اللوح مجددًا ويرقد فوقه ويهتف:

ـ يا عبد المعطي! يا عبد المعطي!

يتقدم مساعده. لا أحد يعلم ما قد يحدث. لم يشارك مساعده ـعبد المعطي- في أي من نمر العرض الأخير قبل ستة شهور. الكل في حالة ترقب. يتسارع قرع الطبول. يخطو عبد المعطي فوق جسد الحاوي الممدد على اللوح المدبب ثلاث مرات بينما يجز الأخير على أسنانه. تضرب سناء بكف يدها على صدرها. تنسحب فاتن مشمئزة للداخل، يتابع محمود ما يحدث بتلذذ. يضع رامز يده فوق رأسه. يسقط فكي السفلي من الاندهاش ويبتسم الحاج صلاح إعجابًا بقوة الحاوي الذي ينهض مجددًا دون أي أثر لدماء أو جروح. تتبدل ملامح الألم إلى أمارات الانتصار. يسير مساعده بين جمهور شارع إبراهيم الرفاعي فاتحًا كيسه القماشي ليلقي كل متفرج من جمهور الشارع والبلكونات بـ"اللي فيه القسمة".

ـ بيهون عليا لحم جسمي عشان آكل ولادي من الحلال. بيهون عليا لحم جسمي علشان آكل ولادي من الحلال. حد عايز يجرب؟ حد عايز يجرب؟

أجد جسدي مجددًا يرتفع ـهذه المرة من فوق العشة المربعة الصغيرة- ليخرج من الشرفة ويبقى معلقًا. أشعر به يتبدل مرة أخرى، أستعيد هيئتي الثلاثينية الحالية وأهبط في وسط الشارع. أنظر نحو الشرفة ولا أجد أبي بل رجلاً آخر وبجواره طفل سمين يبدو أنه في التاسعة من عمره. بين الجمهور أرى أمي وإسراء ـزوجتي- ودارين ابنتي. لا مفر إذًا!

أتقدم نحو مساعد الحاوي. أفتح كيسه ثم أخرج زجاجة منه وأسكب الجاز في فمي. أتجه إلى الحاوي. أمسك بأسياخ الحديد ذات الأطراف المشتعلة وأنفث النار واللهب تمامًا مثله. يصفق الحضور ويلقون نحوي بالمال. أوراق نقدية كثيرة. أجمعها وأتوجه لزوجتي وأضعها في حقيبتها. تطلب مني الذهاب للمنزل فأرفض، تناديني طفلتي:

- بابا بابا!

لا أعيرها اهتمامًا كبيرًا، أذهب نحو اللوح الخشبي، فقد أعجبتني اللعبة كثيرًا. أرقد فوقه ويهتف الحاوي:

- يا عبد المعطي! يا عبد المعطي!

يتقدم مساعده ويخطو فوقي سبع خطوات بينما أجز على أسناني من شدة الألم. أنهض ولا أشعر بدماء تنساب من ظهري. كل ما هو موجود مجرد مئة وخزة فقط. أهتف:

- بيهون عليا لحم جسمي عشان أأكل ولادي من الحلال.

يزداد التصفيق. جاء جمهور جديد من شوارع مجاورة، يلقون بكل ما في جيوبهم من أموال، أجمعها كلها وأضعها في كيس مساعد الحاوي القماشي وأتوجه لزوجتي التي تنظر لي في لوم، تعنفني أمي:

- كفاية!

لا أنصت لأحد، فالأمر لم يعد يتعلق بالمال، بل بالشهرة. لم يعد يقتصر على جمهور شارع إبراهيم الرفاعي، بل آخرين لا أعرف إذا

كانوا هم من أتوا إليّ أم أنني من ذهبت- أو حلّقت- إليهم، لذا لا مفر من إثبات كوني أفضل الحواة. لا بد من تنفيذ خدعة جديدة لم يسبقني فيها أحد. أمسك بالأسياخ الحديدية وأغرسها في ظهري، واحدًا تلو الآخر. على وقع بكاء زوجتي وهتافي: "كفاية" و"بابا". أحاول استخراجها، لكنها سكنت جسدي بالفعل.

- يا عبد المعطي! يا عبد المعطي!

أسمع صوت زميلي في الغرفة، بينما يخترق جسدي أرضية شارع إبراهيم الرفاعي من الوضع واقفًا. لم تكن عملية سهلة مثل اختراق السقف، بل مؤلمة. يهبط جسدي كحفار قبل أن يسقط ممدًا على الفراش في المستشفى، لأجد أمي وزوجتي بجواري والطبيب يؤشر على خروجي، ويطمئنهما:

- مجرد أزمة بسيطة بسبب الإرهاق مع بعض التوتر، والضغط الزائد.

يوصي بأسبوع من الراحة. أرتدي ملابسي، لكنني ما زلت أشعر بألام العقدة والأسياخ. صوت الرجل المسن لا يزال يردد اسم عبد المعطي داخل رأسي. يخرج ثلاثتنا من المستشفى. السماء ملبدة بالغيوم. خليط من كلمات التأنيب والمواساة والتشجيع تردده أمي وزوجتي قبل وصولنا للمنزل. أخبرهما بمسألة العقدة والأسياخ، الحاوي، الحلم، لكنهما يطمئناني.

لم أكن أعرف ما لديهن -أمي وزوجتي وابنتي- من قدرات خارقة حتى تلك الفترة. يبدو أنه سر يتعلق بعالم النساء ولا يُكشف عنه إلا في مثل هذه المواقف. لا يمكنني القول أن المسألة كانت أشبه بالسحر، لأنها كانت سحرًا بالفعل. اعتقدت أنها مجرد هلاوس في الليلة الأولى، حينما شعرت بيد أمي تخرج بنعومة السيخ الأول من ظهري، لكن في الليلة التالية لم يعد هناك مجالاً للشك: استيقظت بينما تنزع زوجتي السيخين الثاني والثالث. أصبت بالذعر لدرجة محاولتي إعادتهما إلى غمديهما في ظهري، لكنها قبلتني وأخبرتني بأن أطمئن، فكل الأمور ستصبح على ما يرام. لا داع للعصبية أو التوتر. سألتها:

- والعقدة؟

لم ترد، لكنها طبعت على فمي قبلة وغفوت سريعًا. استيقظت في الصباح التالي لأجد ابنتي ذات السنوات الأربع تقف بجوار الفراش مبتسمة. جلست معتدلاً واستندت إلى ظهر السرير قبل أن أرفعها. طلبت مني أن أغمض عينيّ، تعجبت في البداية لكن وافقتها، فقد كنت أفتقد مثل هذه الممازحات بيننا. شعرت بفيض من النور يغمر جفوني، فتحت عينيّ لأجد بريقًا مشعًا يخرج من بين يديها، ابتسمت ومدت يدها اليمنى نحو صدري. اخترقته دون ألم، كأنها مداعبة. شعرت بها تمسك العقدة. أخرجتها ببطء، كنت أخشى أن تجرح يدها الصغيرة، لكنها حينما أخرجت يدها من صدري كانت العقدة قد استحالت إلى فتات.

احتضنتها ونهضت من الفراش وأمسكت بيدها وتوجهنا نحو شرفة الشقة، كأنني أعرف أن أمي وزوجتي ستكونان هناك. دخلت إليها وعثرت فجأة على كُرسي جديد، يبدو أنهن جميعًا صنعن قوائمه من الأسياخ التي أُخرجتها من جسدي. دعتاني للجلوس، ترددت قليلاً حتى جذبتني ابنتي نحو الكرسي. جلست ثم قفزت هي الأخرى لتجلس فوق ساقيّ، نظرت نحو السماء، لأجد الشمس تبزغ -لأول مرة بعد أيام وليال طويلة- كما اعتادت من مشرقها.

النوم في محل الخدمة

لم أشعر بنفس الضيق الذي تملكني حينما زارني أول مرة، فقد اعتدت خلال السنوات الماضية على تحمل مروره دون إخطار مسبق. هو ضيف ثقيل وحضوره يخلف نوعًا من الكآبة، بل وربما الغم. كم سنة مرت على تلك الليلة؟ أعتقد أنها نحو تسع سنوات. يقولون إن الجيش مدرسة وهو أمر حقيقي، فمن بين كل الخبرات التي مرت عليّ كانت الخدمة العسكرية هي أكثرها تأثيرًا في تكويني - أم تفكيكي؟ لا أدري حقًا!- فأصناف البشر التي تعبر طريق المرء حتى يحصل على الشهادة الصفراء وتصنيف "قدوة حسنة" كفيلة بتحويل حياته إلى أُحجية كبيرة مليئة بالألغاز الصغيرة، ومن ضمنها سر زيارته التي أيقظتنا في تلك الليلة الطويلة.

كان يتبقى شهران على سفرنا إلى السودان للمشاركة في بعثة (يوناميد) لحفظ السلام بإقليم دارفور، حينما تعارفنا للمرة الأولى، هناك في العنبر الواقع داخل منطقة الـ"هايكستيب". لم يكن عنبرًا في الأساس، بل دورة مياه قديمة، كُسرت الأحواض والمواسير الموجودة بها، ثم

غُطت بالوعاتها بطبقة من البلاط، وبقت بعض قطع القيشاني القديمة الملصقة على الجدران، كشاهد يذكرنا بالماضي العفن لهذا المكان. كانت الحياة في تلك الفترة معقدة، فالزمن يتلكأ عن عمد، يمر اليوم كأنه دهر، تفقد كل الألوان معناها ولا يتسع إدراك المرء سوى لصُفرة الصحراء والأخضر المموه، وفي تلك الليلة البعيدة، اختار أن يأتي.

كنا جميعًا نيامًا على المراتب المتراصة فوق أرضية العنبر، فرفاهية الفراش التي أقص منها اليوم تفاصيل لقائنا الأول كانت في تلك الحقبة ضربًا من الخيال، يتسلل ضوء مصباح الطرقة الأحمر من الفراغ الموجود أسفل الباب كالعادة، يتردد وقع خطوات بين الحين والآخر في مواعيد تغيير خدمات الحراسة أو كلما رغب أحدهم في النزول لدورة المياه "الحقيقية" الموجودة في الدور السفلي، أيقظني ـ أو هكذا ظننت ـ صوت أحدهم يناديني من بعيد:

ـ محمد.. يا فولي!

حاولت النهوض من على المرتبة التي كان يشاركني إياها صديقي علي طه، وحينما أقول يشاركني لا أكذب ولا أشير إلى أن أمرًا مشينًا كان يحدث بيننا، بل لأنه ببساطة لم يكن هناك مُجند واحد في العنبر حينها يتمتع بخصوصية النوم على مرتبة بمفرده، سوى أمير، فمرتبته التي كانت تقع بجوار الباب، عند نقطة تتسرب منها المياه، كانت هي الوحيدة التي لا يمكن أن تتسع لأكثر من جسدين. "الجيش قال لك اتصرف"، هكذا علّمونا، ولهذا أيضًا استمررت في محاولة النهوض بشتى السبل، لكنني لم أتمكن.

أنا مستيقظ. كل حواسي تعمل بكفاءة. أرى إضاءة المصباح الأحمر. أسمع أصوات الخطوات في الطرقة، لكن النداء لم يتكرر. أحاول النهوض مجددًا، فأجدني عاجزًا . أشعر بأغلال تُقيد كل عضلة في جسدي. تتسرب برودتها الحديدية إلى الداخل عبر مسامي. فجأة، ترتفع حرارة الأغلال، أشعر أن دمائي تغلي، تحرقني، تلتهم أعضائي وجلدي من الداخل للخارج. أرغب في فتح فمي للصراخ، لكني لا أقوى، أنا عاجز. أسمع صوتًا يأتي من بعيد. لا أستطيع تمييزه وسط كل ما أمر به. يقترب الصوت. أحاول تحريك عينيّ لرؤية من هذا الذي يأتي طائرًا، لكنهما تواصلان العناد وتظلان في محجريهما. أميز الصوت: هي رفرفة جناحين، وفجأة أشعر بمخالب قدميه الباردتين تجثو على صدري، وحركة أفعوانية لشيء ما -غالبًا ذيله- على ساقي. لا بد أن أنهض، لا مفر. أجاهد لتحقيق الأمر وفي النهاية أنتفض، خائفًا، مذعورًا، مقهورًا، مرتجفًا كعصفور مبلل، أصرخ وأبدأ في النحيب، يستيقظ كل من في العنبر، أحدهم يشعل الإضاءة الصفراء، يدعكون أعينهم وهم ينظرون نحوي في استغراب، فليس من الطبيعي أن يصدر هذا مني. أقص عليهم ما حدث وما شعرت به وأقسم لهم ألف مرة أنه لم يكن كابوسًا، فأنا صديق للكوابيس ويمكنني التمييز بين الحلم السيء وما مررت به.

استمعت في تلك الليلة لنظريات عديدة حول ما حدث. لم يقنعني أي منها، كان أكثرها طرافة والتي كلما تذكرتها لا أتمالك نفسي من الضحك، تلك التي قالها محمد أبو الريش الشهير بيننا بـ"ريشة":

- أنت نمت وأنت نجس؟

هكذا يتعامل ريشة مع الأمور بكل بساطة، فأي حدث في الحياة سواء كان جيدًا أم سيئًا، لا بد وأن يحمل لمسة جنسية على الرغم من أن طابع حياتنا في تلك الفترة لم يكن يترك وقتًا حتى للاستمناء، لكن من سؤاله انبثق تفسير آخر يتعلق بـ"النجاسة". قال أحدهم- ولا أتذكر من كان- إنه لا يجب نسيان أن هذا العنبر له ماضيه العفن كدورة مياه، لهذا لا يمكن استبعاد احتمالية أن يكون مسكونًا بالعفاريت التي قرر أحدها التواصل معي في تلك الليلة.

وهكذا وفي ظرف لحظات، انقلبت دفة الحوار. لم يعد الأمر يتعلق بما حدث لي، بل بالأساطير الحضرية المتعلقة بالحياة العسكرية، لذا بدأ الشرقاوي يخبرنا عن قصة "بلدياته" الذي كان يخدم في سيناء وكيف أنه ذات ليلة فوجئ بجسد بلا رأس يرتدي أفرولاً مموهًا ويسير بالخطوة العسكرية أمام محل خدمته. لم تقتصر تجربة الصديق فقط على تلك الليلة، لأنها تكررت أكثر من مرة، وحينما أخبر صف ضابط بالأمر، لم يتهمه بالجنون أو يعنفه، بل نصحه بأن يرفع الآذان طوال الخدمة وهو ما فعله، إلا أن زيارات الجندي مقطوع الرأس لم تتوقف، لهذا اعتاد عليها. أنهى الشرقاوي القصة وهو ينفث دخان السيجارة التي أشعلها، ولم تتوقف الحكايات المشابهة لها طوال الليلة، من بينها كانت تلك القصة، التي لا ترتبط بالموضوع لكن لها شهرتها، عن الفأر الذي قضم قضيب عسكري بعدما تسلل من سرواله وهو يقف في الخدمة. كان ريشة هو الراوي بكل تأكيد وأنهاها بقوله:

- احمد ربنا إن بتاعك لسه في مكانه.

انفجر الجميع ضحكًا، بما فيهم أنا، لكني لم أقو على النوم سوى سويعات قليلة ولحسن الحظ ـ نعم لحسن الحظ ـ كان يتوجب عليّ الوقوف في خدمة بالليلة التالية، لهذا لم أكن مضطرًا للنوم في العنبر، فال"النوم في محل الخدمة يا عسكري" كان لها وقعًا عذبًا حينها على عكس كل مرة.

تلقيت في الصباح التالي ـوبكل سرورـ نبأ استخراج تصريح الإجازة. ارتديت الأفرول الأخضر، وسرت قُرابة ساعة إلا ربع حتى وصلت إلى البوابة المطلة على طريق مصر الإسماعيلية. عبرت الطريق السريع، ولحسن الحظ لم أنتظر كثيرًا وطرت في أول ميكروباص نحو موقف العاشر، ومنه إلى محطة مترو المرج الجديدة، وصولاً إلى محطة مترو الحلمية ومنها سرت نحو شقتنا الجديدة في ميدان النعام.

استقبلتني أمي بعناق حار وعبارتها المعتادة مع كل عطلة "أنت وشك أصفر زي الليمونة كده ليه؟" ربما كانت محقة هذه المرة، لكني طمأنتها وأخبرتها أن كل شيء بخير، وانتظرت وصول أخي الأكبر من عمله، فالدكتور الصيدلي أحمد الفولي رجل علم ولا بد أن لديه تفسيرًا لما حدث. رويت له ما حدث، وأخبرني بألا أقلق بتاتًا، فهناك تفسير علمي للموضوع وشرح لي إن ما مررت به يدعى شلل النوم، وأنه غالبًا يحدث لمن يعانون من اضطرابات في النوم، وهو الأمر الذي كنت أعاني منه فعلاً بسبب طابع الحياة العسكرية. يحدث إما في اللحظات الأولى من النوم أو في اللحظات الأولى من مرحلة الاستيقاظ، حيث يفقد ضحيته قدرته على تحريك أي من عضلاته ولا يقدر على الكلام، وغالبًا ما يكون مصحوبًا بهلاوس سمعية وبصرية.

طمأنتني كلماته كثيرًا، لكن عقلي ظل منشغلاً بالمسألة، لذا أضعت وقتًا طويلاً من عطلتي الثمينة وأنا أطالع عبر القراءة الإلكترونية على الإنترنت، بواسطة كل اللغات التي أجيدها، مزيدًا من المعلومات حول الأمر، كان ما جذبني أكثر من مسألة التفسير العلمي، الجانب الأسطوري، عرفت حينها أن ذلك المخلوق الخيالي الذي اعتقدت أنني شاهدت قدميه ومخالبه في تلك الليلة يدعى "الجاثوم" بالعربية، وفي ثقافتنا لا توجد نسخة مؤنثة منه، فهو يجثم على الرجال والنساء على حد سواء، أما في الأساطير الغربية فهناك نسختين منه واحدة مؤنثة وأخرى مذكرة، والأشهر تلك الأخيرة، حيث كان يجري الاعتقاد أنه لا يكتفي بالرعب الذي يبثه في ضحاياه من النساء، بل يقدم أيضًا على اغتصابهن. شاهدت أيضا لوحة (الكابوس) التي تمثل "الجاثوم" للفنان الألماني يوهان هنريش فوسلي. في كل مرة أراها، رغمًا عن كون ضحيته امرأة ـأو ربما لأنها كذلكـ تسري في جسدي قشعريرة باردة، لذا أفضل ألا أصف اللوحة في هذه السطور.

بت أعرف، أو اعتقدت أنني بت أعرف، كل أبعاد المسألة العلمية والأسطورية، ما سهل علي كثيرًا التعامل مع الزيارات الموسمية لشلل النوم الذي يرفض منذ تعارفنا الأول أن يمر عام دون أن يلقي علي التحية مرتين أو ثلاث، يقتصر الأمر أحيانًا على عجز تام عن الحركة، مصحوبًا بهلاوس سمعية: أصوات تنادي؛ أصوات من رحلوا وأصوات من مكثوا وأصوات ليس لها وجود في حياتي. أستيقظ بعدها مغمومًا، لكن ليس بنفس درجة المرات التي تنضم فيها الهلاوس البصرية إلى

الحفل، فحينها أنهض دون بكاء أو صراخ -على عكس تلك الليلة البعيدة في الهايكستيب- لكن منهارًا من الداخل بعد أن تداعت جدران روحي وتمزقت كل خلية عصبية داخل جسدي الى اشلاء متناهية الصغر.

أقولها مجددًا: لم أشعر بنفس الضيق الذي تملكني حينما زارني لأول مرة، فقد اعتدت خلال السنوات الماضية على تحمل مروره دون إخطار مسبق، واليوم منذ ثوان قليلة اقتصر الأمر على شعور بالعجز عن الحركة فقط.

أنهض من على فراشي، لا أجد زوجتي. أتذكر -كأنني قد نسيت- أنها تمكث الليلة في منزل شقيقتها. كعادتي مؤخرًا أحاول العودة للنوم عبر القراءة، لكن الأمر ليس ممكنًا، فهي رواية (أبطال وقبور) للعبقري الأرجنتيني إرنستو ساباتو. ألتهم بنهم وبقلق كلماته ووصفه الرائع والبشع في ذات الوقت بفصل (تقرير عن العميان). أشعر بالدوار فأنهض مسرعًا نحو الحمام الصغير الملحق بغرفتي لأفرغ ما في معدتي. أغسل وجهي وأمضمض فمي ثم أعود نحو فراشي. لن أستلقي الآن لكيلا يعود الدوار والغثيان. أستند بظهري إلى السرير. أنا مستيقظ وواع، لكن فجأة يتصلب جسدي، لا أقوى على الحراك، أعجز عن غلق عينيّ، كيف يحدث هذا؟ أشاهد على حائط الطرقة المواجهة لباب الغرفة ظلاً يتحرك. لا أستطيع تمييزه، حتى أراه في النهاية يقف عند مدخل الحجرة: قوامه لا يتعدى طفل عمره تسع سنوات. عيناه حمراوان مشقوقتان طوليًا كعيون الزواحف. بشرته أشبه بجلد التماسيح، مليئة

بالحراشف. يتمايل ذيله المنتصب وهو يتقدم بخطوات بطيئة كعجوز في حاجة إلى عكاز يُكسب حركته نوعًا من التوازن. يفرد جناحيه بعرض الغرفة ثم يقفز عند مقدمة الفراش. ينظر نحوي بسخرية، يبتسم كاشفًا عن أنيابه، يغلق فمه ثم يحرك رأسه يمينًا ويسارًا كأنه يأسف على شيء ما. يفتح فمه مجددًا وأسمع صوته المتحشرج المرعب يقول:

ـ لقد جئت لكي أودعك، لا تتعجب من حديثي معك بالفصحى، فأنا الجاثوم ولا يليق أن أتحدث بعاميتكم البغيضة، لكن أخبرني: كيف حالك الآن؟ أنت لست نائمًا، ها أنا هنا أقف أمامك لتراني كاملاً للمرة الأولى، وسيم، أليس كذلك؟ لن أطيل عليك، فكما سبق وأخبرتك أنا هنا لأودعك، لكني أرغب أيضًا أن أحكي لك العبرة من قصة الفأر الذي قضم قضيب العسكري، هل هي حماقات مثل ضرورة اليقظة والانتباه؟ لا يا مغفل! بل معرفة أن الفأر لو كان يرغب في أكله بالكامل، لفعلها.. أتدري؟ لو كنت أرغب في القتل، لما تبقى أحد منكم، لكن أين التسلية في ذلك؟ أنت وغيرك تكملونني، لكن للأسف نحن أيضًا نتقاعد، حانت لحظة فراقنا. لا تقلق سأترك لك هدية كنت دائمًا تفتقدها: البصيرة. ستعرف ماذا أعني لاحقًا، لكن لا تقلق لن تراني أنا أو أي من أبناء جلدتي على الفراش مرة أخرى، فالنوم لم يعد في محل الخدمة، سأتركك الآن فهي ليلة طويلة ولديَّ زيارات أخرى.

فرد الجاثوم جناحيه مجددًا وطار نحو شرفة الغرفة واستعدت قدرتي على الحركة، نظرت نحوه وشاهدته يحلق للأعلى مبتعدًا،

توجهت لدورة المياه لأفرغ ما تبقى في معدتي من عصارة. هل كان ما رأيته حقيقيًا؟ لا يمكن أن يكون حقيقيًا. هي هلاوس بكل تأكيد، يبدو أن المسألة اكتسبت بُعدًا مرضيًا وباتت تطاردني وأنا في حالة اليقظة، لا بد أن هناك شيئًا اسمه مثلاً شلل اليقظة المؤقت! أفضل أن تكون نوبات مرض ما على أن يكون ما رأيته حقيقيًا، شعرت بالدنيا تدور من حولي، ألقيت بجسدي فوق الفراش. الجدران والسقف والنجف كلها تدخل في مرحلة الذوبان إلى سائل بلون القطران. أفقد الإحساس بجسدي وبالزمان وبالمكان. العتمة هي كل ما يوجد في هذا البعد. أفتح عينيّ، أنهض من فوق الفراش في صباح اليوم التالي، أتذكر كل ما حدث في الليلة الماضية وأيضًا في تلك الليلة البعيدة. أحاول نفض ما لا أعرف إذا كان خيالاً أم واقعًا من داخل عقلي. أرتدي ملابسي سريعًا دون استحمام ثم أفتح باب الشقة. أرغب في النزول للشارع لمشاهدة أشخاص طبيعيين. أهبط في المصعد وأفتح بابه وأتوجه نحو مدخل العمارة ثم أتسمر في مكاني.

- مالك يا أستاذ محمد؟

لا أجيب "أم سيد" زوجة حارس العقار على سؤالها، فقد أبصرت على كتفها جاثومًا صغيرًا يبدو أكثر شبابًا من ذلك الذي بت متأكدًا الآن من أنه زارني في الليلة الماضية. أخرج نحو الشارع بحثًا عن الهواء، عن حياة طبيعية، لكن أبصر فوق أكتاف وظهور وصدور كل من يسيرون مخلوقات بنفس هيئة عدوي المعتزل الذي ترك لي هدية البصيرة. أسير مطأطئ الرأس بين جموع البشر والجاثوم. أبصر فأرًا

يركض قبل أن يقف عند ساقيّ محمود نجل صاحب كشك السجائر في نهاية الشارع. هو في عطلته من الخدمة العسكرية، أعرف هذا من حلاقته و"السبعة الميري" أسفل رقبته. ابصر الفأر يتسلل من فتحة سرواله الواسعة. أرغب في تحذيره، لكني لا أجرؤ على فعل شيء سوى مناداة نفسي:

ـ محمد.. يا فولي!

البحث عن أيمن حلاله

تكاد تصاب بالجنون، فهي تتأكد بنفسها كل مساء من غلق النوافذ، الصغيرة قبل الكبيرة، لذا فمن أي منفذ ملعون دلف ذلك الجرذ القبيح الذي تظن أنها سمعت صوت خربشته منذ عدة دقائق؟ تعلن إسراء حالة الطوارئ في البيت. الطفلة ستصعد لتجلس في شقة جدتها لحين انتهاء عملية تمشيط المطبخ. أقف -بعد أن أيقظتني- متسلحًا بعصا المقشة، على أهبة الاستعداد لأنهي حياة ذلك الدخيل البائس بضربة واحدة. في الحقيقة ربما اثنتين أو ثلاث أو أربع، فنحن معشر الرجال لا نجيد دائمًا التصويب بالعصي على رؤوس الفئران. تخطر لي فكرة لزيادة قوة سلاحي. أفتح صندوق العدة الذي قلما ألجأ إليه في ظل افتقاري للمهارات اليدوية. أتمكن بعد عدة محاولات من تثبيت بعض المسامير في العصا الخشبية المستديرة. يسمح صغر قطرها بأن تخرج أطراف المسامير الحادة من الناحية الأخرى. أصنع هكذا نسخة مصغرة من الهراوات المدببة، التي استخدمها أبطال الأساطير الإغريقية قبلي في مقارعة عدد لا يحصى من الوحوش، لأستعد للقضاء على ذلك القارض عثر الحظ الذي أفسد صباح عطلتي.

أتساءل أين ذهبت سلامة العقل، حينما أراها تفرغ بجنون كل محتويات المطبخ، ففي النهاية لا يمكن لفأر أن يرفع ضلفة المطبقية ليدخلها بل ولم يقدم أساسًا على فعل هذا؟ أهو في حاجة لإعداد فنجان من الشاي أو القهوة؟ أسألها مازحًا للتخفيف من توترها لكنها تجيبني بضيق:

ـ مش وقت خفة دم.

تعيدني الحدة التي نطقت بها عبارتها إلى أرض الواقع. أنأى بنفسي عن تناول أي نظريات خيالية بخصوص مزاج ضيفنا السمج وحاجته للكافيين. أتخذ مجددًا وضعية البطل الإغريقي القابض على هراوته. أنتظر خروج الوحش من مخبأه، لكنه لا يظهر، لا وجود له، لا حس ولا خبر! تقسم أنها سمعته، فهي على النقيض مني، تدرك كيفية الفصل بين عالم الأحلام والواقع، وصوت خربشته هو الذي أيقظها، تدمع عينيها وتقول:

ـ البيت دخل له فار يا محمد.

كان الخوف الذي ارتسم في عينيها الواسعتين بينما تنطق تلك الكلمات القليلة، كفيلاً بتنشيط نمط "حامي الحمى" داخلي، ففي النهاية هذا هو منزلي ولا يمكن لأحد ـأيًا كانـ أن يُرعب فتاتي الصغيرة وابنتها، فهذا المنزل له رجل واحد فقط ولا يتسع أبدًا لوجود ذلك المخلوق البغيض ذي الشاربين. تتمخض راسي عن فكرة عبقرية، حل يُرضي جميع الأطراف: ستأخذ الطفلة وتذهب لقضاء اليوم في منزل

أختها وتترك لي مهمة إلقاء القبض على عدونا الجبان، وإذا لم أعثر عليه اليوم فيمكنها المبيت هناك وسأعد له مصيدة مجهزة بجرعة سم من العيار الثقيل. وافقت على عكس توقعي وفي ظرف ربع ساعة -على غير العادة- كانت قد انتهت من ارتداء ملابسها وأصبحت في طريقها مع الطفلة نحو شبرا الخيمة، واتخذت أنا طريقي نحو الفراش مجددًا، وصوت نمط "حامي الحمى" داخلي يؤنبني، لكن كان هناك صوت آخر كسول وخبيث يسألني عن أي هراء كانت تتحدث؟ فهذا البيت لم يدخله فئران! هي مجرد هلاوس أنثوية. هذا هو وقت العودة للنوم ومحاولة إعادة يوم الإجازة لمساره الطبيعي. حينما أستيقظ سأجري بحثًا بسيطًا وإذا لم أجد شيئًا، فلا بد أنها كانت مجرد تهيؤات.

استلقيت على الفراش لكني فشلت في أن أغفو مجددًا. حاولت النوم بطول السرير وبعرضه، في كل الأوضاع الممكنة. ظللت أقلب وأدير جسدي مع اتجاه عقارب الساعة وعكسه. بدأت أفكر في الفأر مرة أخرى ثم فجأة تردد صدى تلك الأغنية البعيدة في ذهني ووجدت نفسي أردد ذلك المقطع:

"قال وأنا نايم على السرير
سمعت فار تحت السرير
بيقرمش
بيخربش".

كم عامًا مر على المرة الأولى التي استمعت فيها لتلك الأغنية، لتلك الكلمات، لصوته، لصوت أيمن حلاله؟ ستة عشر عامًا تقريبًا، أعتقد هذا، لكن ما هذا الذي أسمعه الآن؟ هل كانت محقة؟ هو صوت خربشة بالفعل وأعتقد أنه يأتي من أسفل الفراش. أنهض وأشرع في رفع المرتبة. هي ثقيلة للغاية. أتذكر شكواها منذ أسبوع من ألم في ظهرها بعد تنظيف الغرفة وأنا أضع المرتبة على الأرض. أنظر لأكوام من الحقائب المكدسة في بطن السرير أسفل عوارضه الخشبية، لكن أنا الآن أعزل، يجب أن أجلب سلاحي البدائي من المطبخ تحسبًا لخروج الوحش الصغير من مخبأه. أتوجه لجلب هراواتي المستحدثة وفي طريق عودتي أسمع صوت شيء ما يتحرك في الطرقة. أمشطها جيئة وذهابًا لكني لا أعثر على أي أثر للفأر. أتوجه نحو غرفة النوم. أرى المرتبة الضخمة تتوسط الغرفة. السرير كائن ضخم قد بُقر بطنه. أفكر في نسيان الأمر ومحاولة النوم على الأريكة غير المريحة لكن يتردد صوت أيمن حلاله داخل رأسي وهو ينشد نداءه الحماسي في نفس الأغنية:

" اصحى! اصحى!
اصحى بقى يا شاورما!
شاورما اصحا بقى!".

أشعر أن هذه رسالة ما، لذا أنفض فكرة محاولة النوم على الأريكة من راسي، وأشرع في رفع العوارض الخشبية. لا بد أن هذا الفأر قد اقتحم خصوصية شقتي ليعيدني إلى تلك الحقبة، فها أنا الآن يقودني الفضول للبحث بين الحقائب الموجودة في سحارة السرير عن

شريط الأغاني الوحيد الذي امتلكته لل"فنان أيمن حلاله"، لتتبعثر من حولي محتويات الحقائب ومعها ذكريات حياتي.

أتذكر اليوم الأول الذي استمعت فيه لتلك الأغنية: أجلس على واحدة من المصاطب الخشبية في مخزن "عم زينهم" في انتظار وصول منافسي في رهان ذلك اليوم، وهناك في وسط المكان يرقص "عنتر عضمة" بسكينه على وقع الموسيقى الشعبية لكلمات الأغنية. كان هو من جلب الشريط وأخبر كل من في المحل بأننا سنستمع إلى "شوية أغاني عدالة"، هكذا كان يصف "عضمة" دائمًا أي شيء يراه رائعًا: "الواد ده عدالة"، "الشريط ده عدالة"، لم أسأله قط عن السر وراء استخدام هذا الوصف، لكن تجرأت على سؤاله من أين جلب الشريط فأجاب بكل بساطة:

- من عند حسام سوستة في أول الزرايب.

فكرت كثيرًا أثناء عودتي للمنزل في المسألة، أنا أعرف القليل عن منطقة عزبة النخل ولا شيء تقريبًا عن منطقة الزرايب القريبة منها. سمعت بعض المعلومات عنها من هنا وهناك وكلها لا تشجع على الذهاب، لكني أرغب في الحصول على نسخة من هذا الشريط، لأثبت لأخي الأكبر مجددًا قدرتي على جلب عجائب لم يدركها في مراهقته، وهكذا انطلقت رحلة البحث عن أيمن حلاله. بدأت المسألة بالمرور على بائعي الشرائط "المضروبة" في شارع المشروع، فمن هناك يمكنك الحصول على نسخ تفتقر للجودة لأحدث الألبومات بخمسة جنيهات

للشريط الواحد، وأيضًا أحدث أعمال المطربين المغمورين المسجلة في الأفراح، الموالد، أو استوديوهات متواضعة.

لم يحالفني التوفيق، لهذا قررت اللجوء للخيار الثاني. إذا فشلت الخطة (أ) عليك الانتقال فورًا إلى الخطة (ب)، هكذا يجب أن تسير الأمور، لذا توجهت لمكتبة (حسام) في شارع عزت باشا، من هناك يمكنني شراء شريط الكاسيت الفارغ بجنيهين أو ثلاثة -لا أتذكر حقًا- يتسع كل وجه غالبًا لأربع أغاني، ليس هذا فحسب، بل تسمح التكنولوجيا المتطورة المتوفرة هناك للزبائن باختيار أغنياتهم المفضلة، سواء من ألبوم واحد أو عدة ألبومات، وتسجيلها من النسخ الأصلية -أو تلك التي يُفترض أنها أصلية- على الشريط الفارغ بسعر عشرين قرش للأغنية الواحدة، لكن في النهاية عدت أجر أذيال الخيبة، فهم لا يعرفون شيئًا عن أيمن حلاله أو أعماله الفنية.

أفكر في الخطة (ج)، سأذهب مساءً بعد درس الفيزياء، إلى مخزن عم زينهم. آملاً في العثور على عضمة هناك ليترك لي الشريط، لمدة يوم واحد فقط لأتمكن من تسجيله عند مكتبة (حسام)، وكان هذا هو ما حدث بالفعل. تعجب كثيرًا من لهفتي على الأمر، لكن في النهاية أنا سبيل جيد لحصد مال سهل، وإذا كان هذا الأمر سيرضيني، فما المانع من تقديم هذه الخدمة البسيطة؟ لا يوجد أي مانع، لكن لماذا؟ لماذا بعد ١٥ أو ١٦ عامًا أحاول العثور على شريط الكاسيت الأسود الذي يضم الأعمال الكاملة للنجم أيمن حلاله؟ هل هو الفأر الملعون أم شغفي المستحدث بالعبث مع الذكريات البعيدة؟ أنا مجنون ومتناقض. لا

أتوقف عن قول إن ما حدث قد حدث، لكن الماضي يجذبني بسهولة كمغناطيس يجذب مسمارًا، يشدني عبر أتفه الأمور، كفأر، مجرد فأر.

لا أجد مرادي في الحقيبة الأولى، مجرد مجموعة من القواميس وبعض الشهادات المدرسية القديمة، من ضمنها شهادة تقدير لمشاركتي في مسابقة القرآن الكريم بمدرسة (بورسعيد الخاصة). هذا هو دليل آخر على طباعي المتناقضة. كان الشرط الأساسي للدخول في المنافسة أن يكون المشترك يحفظ جزءًا واحدًا على الأقل من القرآن، لم أكن أحفظ سوى سورة (عم) وقررت الاشتراك ولحسن الحظ -أو ربما لسوئه فالأمر يجلب لي الآن شعورًا بالعار- كان كل ما طُلب مني حينها هو تلاوة بعض الآيات منها، وهكذا حصلت على هذه الشهادة التي أمسكها الآن بين يديّ.

أعثر في الحقيبة الثانية على بعض شرائط الكاسيت الأخرى من فترة مراهقتي، تامر وشيرين، محمد محيي، عمرو دياب، جورج وسوف، إيهاب توفيق، مصطفى قمر، لكن لا وجود للشريط المنشود. أجد بعض الأوراق من أيام الجامعة. تنسل إحداها من بين رزمة وتسقط على الأرض. أمسكها وأعيد قراءة الهراء الذي كتبته ذات مرة -قبل عام من حصولي على ليسانس اللغة الإسبانية وآدابها- لأستاذ اللغة العربية في الكلية: "أطروحة الساعة الخامسة". قبل أسبوعين من كتابة هذه الأطروحة كان أستاذنا الجامعي قد دعانا لكتابة ما يشبه النقد سواء بالسلب أو الإيجاب عن أي عمل فني مفضل لدينا. وقع اختياري بكل تفاهة وألمعية على واحدة من الأغنيات الشعبية في تلك الفترة وهي "من

خمسة لخمس ونص" وانساب خيالي ليربطها بكل واقعية بأمور غير عقلانية. ربما بسبب تعليقه الإيجابي بعد محاضرتين سأكتب لاحقًا رحلة بحثي عن الأعمال الكاملة لأيمن حلاله، لكني حتى الآن لم أجد شيئًا في الحقائب الثلاثة التي تخزن أغراضي وذكرياتي القديمة، فما الحل؟

أتوجه محبطًا نحو جهاز الكمبيوتر في الغرفة المجاورة، سأبحث عن أغنيات أيمن حلاله على الإنترنت. هي محاولة بائسة، فلا أظن أن أحدًا قد اهتم يومًا ما بتحميلها وحفظ هذا التراث المتواضع. أفتح المتصفح ومحرك البحث من بعده وأكتب بتثاقل "أيمن حلاله"، أضغط زر الإدخال ولا أصدق ما تراه عيناي، أغاني الألبوم الثمانية موجودة على موقع "طرب"، ها هي الأغنية المطلوبة: "يا زارع وردك"! أضغط عليها وأستمع للكوبليه الأول:

"يا زارع وردك يشبه لك

أنا سامع صوته بينده لك

بينده لك

على مهلك

ارقص على مهلك".

يتراءى لي عضمة وهو يرقص بسكينه. راس عم زينهم تتمايل في حالة طرب غير مفهومة بينما ينفث دخان سيجارته السوبر. يصفق البعض بينما أتأمل هذا المشهد بتعجب. هو نفس التعجب الذي يتملكني الآن من دخولي ـأنا الذي بات يستمع الى كلاسيكيات

الموسيقى الإسبانية لباكو دي لوثيا وكامارون دي لا إيسلا- إلى حالة طرب مشابهة لذلك الثنائي.

"قال وانا نايم على السرير

سمعت فار تحت السرير

بيقرمش

بيخربش".

أتذكر ضرورة العثور على صديقي الفأر بعد سماع ذلك المقطع. لا لم يعد عدوي فبسببه أستعيد جزءًا من ماضي لا أعرف إذا كان جيدًا أم سيئًا، لكن كل ما يهم هو أنني استعدته. لا يجمعنا أي عداء الآن أيها الجرذ المحترم، لكن اغفر لي، يجب أن أبحث عنك من أجل المصلحة العليا، فالعائلة -كما تعرف- تأتي أولاً.

أتذكر أيضًا قراءتي ذات مرة أن الذبذبات المرتفعة تزعج القوارض وتدفعها للخروج من مخبأها. لا أعرف أي نوع من الذبذبات، لكن ما المانع من رفع صوت السماعات إلى أعلى درجة ممكنة؟ يملأ صوت أيمن حلاله أرجاء الشقة. أعود نحو غرفة النوم وأمسك بسلاحي المستحدث. فكرت قبلها في الذهاب نحو المطبخ لاستلال سكين والرقص على طريقة عنتر عضمة، لكني لا أتمتع بمهاراته. أتمايل بالعصا على موسيقى الأغنية بينما أقف عند نهاية الطرقة، أجد الفأر يأتي راكضًا نحوي. أقفز

بينما يعبر من تحتي نحو المطبخ. ألحق به وأغلق الباب. هل أقضي عليه؟ يأتي صوت أيمن حلاله ليمنحني بعض التوجيهات:

"جبت عصاية وضربت الفار

طلع يجري على الجدار

ريحت الحصان

قعدته ع النجيلة

ريحت الحصان

قعدته ع النجيلة

كده كده أهو

هنا هنا أهو".

ليس لدي أحصنة. أرضية المطبخ من السيراميك. أمسك في يدي بعصا. لا أرغب في ضربه. أشعر أنه بات صديقي. لا أدري لماذا يقف في منتصف المكان دون حراك. أتوجه نحو النافذة وأفتحها. أردد كلمات "كده كده أهو، هنا هنا أهو"، وأنا أتمايل بجسدي بينما أضرب بالعصا على الأرضية بجوار الفأر. هل ترغب في الرقص معي يا صديقي؟ هل ستقف على قائمتيك الخلفيتين وستفعلها؟ لكنه لا يفعلها يتحرك يمينًا ويسارًا فقط. أضرب بالعصا على الحائط بجوار النافذة. أوجهه نحوها. أعتقد أنه قد فهمني: ها هو ينطلق: *كده كده أهو، هنا هنا أهو*! أصبح خارج المطبخ الآن. يقف تحديدًا على إفريز النافذة. أراه يقف على قائمتيه الخلفيتين، يهز وسطه يمينًا ويسارًا ثم يرحل.

لقد طردت الفأر. رقصنا معًا حقنًا للدماء! أغلق النافذة واتوجه نحو جهاز الكمبيوتر مجددًا. افتح حسابي على (فيسبوك)، زوجتي متصلة أرسل لها لأخبرها أنني قد طردت الفأر. ترد بمجموعة من الرموز التعبيرية المبتسمة مذيلة بعبارة "الحمد لله"، أكتب على صفحتي:

"جبت عصايا وضربت الفار، طلع يجري على الجدار، ريحت الحصان قعدته ع النجيلة، كده كده أهو، هنا هنا أهو"، وأسفلها اسم باولو كويلو كنوع من المزاح.

تنهال إخطارات الإعجاب، التعليقات، الرموز التعبيرية المبتسمة من الجميع -باستثناء زوجتي- على ما كتبته، بعدها بقليل أنسب في تعليق هذه الكلمات إلى صاحبها الحقيقي، الفنان أيمن حلاله، لكني لا أجد ردودًا، ولا تعليقات أو ابتسامات.

قصة حب رعب آهات

استقبلت النبأ بسعادة بالغة. يبدو أن أبي اقتنع بالأمر، هكذا سأتمكن أخيرًا -أنا الطفل الذي أكمل منذ أشهر قليلة عامه الحادي عشر- من الاستمتاع بأحدث الألعاب: (فيفا) و(علاء الدين) و(هرقل) و(منزل الموتى). لن أضطر للكبس مجددًا على أنفاسه وإفساد واحدة من متعه القليلة. لا أتحدث هنا عن الحاج صلاح، بل عن شقيقي الأكبر أحمد. أنا الأخ الأصغر، أنا الطفيلي الذي يلتصق بكعب حذائه كلما ذهب لمنزل أحد أصدقائه للعب. هو يشعر -كان يشعر حتى لا أقسو عليه- بأن ذلك العجل الصغير يجلب له العار. أنا حمل ثقيل لا يجب أن يجره خلفه كلما أراد الاستمتاع. أنا كرة لدنة لا تزال تتشكل. طيف لكيان مجهول. أنا المجهول الذي لا يرغب أحد في التعرف عليه عن قرب أو حتى عن بعد - حتى شقيقه الأكبر- لهذا استقبلت النبأ بسعادة بالغة: قريبًا سيصبح في بيتنا كمبيوتر!

لم يبخل أبي علينا وجلب لنا جهازًا حديثًا -بمقاييس تلك الفترة- فيكفي فقط أن مساحة قرصه الصلب بلغت ٦ جيجا مرة واحدة! هي

مساحة أكثر من كافية حينها، ليس هذا فحسب، بل إنه مزود بوحدة سريعة لتشغيل الاسطوانات المدمجة. هكذا ستتمكن ـسأتمكن- من جلب المزيد من الألعاب والأفلام والصور، لكن يجب أن أتوخى الحذر كما قال المهندس، فالاسطوانات والأقراص الصلبة مجهولة المصدر فريسة سهلة للفيروسات. إذا وقعت الطامة الكبرى سنضطر لإلغاء كل الملفات وإعادة تثبيت نظام تشغيل (ويندوز) من جديد، وهي مهمة معقدة قد تستغرق وقتًا طويلاً.

مع وصوله، اكتسبت أخًا جديدًا في المنزل. بت واثقًا من أن وجوده في حياتي مكافأة إلهية جاءت لتعوضني. هي يد الرب تربت على رأسي وتواسيني بعد حرماني من وجود شقيق أصغر في حياتي بسبب إجهاضها. أتحدث عن أمي. لا زلت أتذكر اعتذارها لي عقب خروجها من المستشفى، تعتذر لي لأن أخي المنتظر لن يصل.

أظن أن دخول ذلك الوافد كفرد جديد في العائلة- أتحدث عن الكمبيوتر- جعل علاقتي مع شقيقي الأكبر تتحسن كثيرًا، فما دمت أجلس لألعب خلف الأسوار ولا أفقده شيئًا من هيبته، هناك، في الخارج، بين أصدقائه، فما المانع من أن تتحسن طباعه معي؟ هكذا بدأنا نحن الثلاثة: أنا وأخي الأكبر والكمبيوتر، في الاستمتاع معًا كعائلة سعيدة خلف الجدران. زاد عشقنا لأفلام الرعب منخفضة الميزانية، التي دائمًا ما تحمل لمسة كوميدية. هي قمة في الإبهار بالنسبة لهذا الطفل وشقيقه المراهق. تصل ملفاتها دائمًا مكتوبة بعناوين عربية: "الفارس مقطوع الرأس"، "الرجل الخفي"، "عروس الشيطان".. كل الأسماء

الخزعبلية التي كانت أندية الفيديو تضعها على شرائطها في التسعينات.
أحد هذه العناوين هو "قصة حب رعب آهات"، لم أتمكن قط من معرفة اسم الفيلم الحقيقي، لكنه ظل عالقًا في ذهني، رغمًا عن حبكته التقليدية: مجموعة من المراهقين يقودهم تهورهم لدخول منطقة محظورة يظهر لاحقًا أنها معمل سري للفيروسات، يتحولون جميعًا إلى موتى أحياء باستثناء البطلة. يضحي البطل بحياته في النهاية لينقذها، أما أول ضحية فكان هو -كما يحدث دائمًا- الفتى السمين.

* * *

ارتديت قميصي الرمادي المميز ووضعت عطري الفواح الذي قمت بتركيبه عند محل (البنداري) بشارع الخارجة. أقف لأصفف شعري بالكريم جيل. أنا لا أصففه بفرشاة أو مشط، بل أفرغه بيدي كما علمني زميلي في الصف الثاني الثانوي "محمود حباقة". لا يمكنني أن أجعله ينتصب كالأشواك بتمرير يدي فوقه يمينًا ويسارًا بصورة سريعة، فقد أخبرني رضا الحلاق أن "فتلة شعري وحشة" لهذا أنا محروم من الشعر الـ"سبايكي"، لكن لكي أكون صريحًا فحتى لو كانت "فتلة شعري" تسمح بتصفيفه على هذه الشاكلة، لم أكن لأفعلها، لن أخاطر بالدخول في شجار مع الحاج صلاح لسبب تافه مثل هذا، خاصة وأن البيت بأكمله قد تناسي المجموع السيئ الذي حققته في الصف الأول الثانوي: ٦٣٪!

لم يكتشف أحد ما كنت أفعله في العام السابق، هروبي من الفصول، علاقتي بعنتر عضمة وعم زينهم، لكن كل العائلة كانت في

حيرة من أمرها، فكيف تحولت من أحد أوائل الإعدادية بمدرسة (بورسعيد الخاصة) إلى طالب فاشل؟ أنا وحدي أعرف حيثيات وتفاصيل المسألة. أنا وحدي أيضًا القادر على تغيير دفة الأحداث في الصف الثاني الثانوي. لن أتخلى عن مغامراتي واستكشافي لأشكال الحياة التي أجهلها، لكن في نفس الوقت سأولي دراستي مزيدًا من الاهتمام.

إنه الثلاثاء يا سادة! اليوم الذي أنتظره أسبوعيًا لرؤيتها.. رؤيتها وتبادل بعض الكلمات القليلة معها أثناء الحصة أو بعد تصوير الملازم. هي أمور على الرغم من بساطتها تجعلني أحلق فوق السحاب ومن يعرف فربما قد تتطور لأكثر من هذا، ولم لا؟ فأنا أخيرًا قد تمكنت من خفض وزني بصورة ملحوظة، لا زلت بدينًا بعض الشيء، لكن لم أعد ذلك العجل الصغير الذي يجلب العار لأخيه الأكبر، بل صندوق المفاجآت الذي يحدثه عن أمور لم يرها أو يمر بها أثناء دراسته الثانوية. المشكلة أن وقته ضيق ودراسته الآن تحتاج لتركيز أكبر. هو مشروع الدكتور الصيدلي أحمد الفولي، الطالب بجامعة حلوان، المسافة التي تفصل عين شمس عن حلوان طويلة للغاية. ليس أمرًا هينًا أن تقطعها يوميًا وأنت طالب في كلية قمة، لكنه كان يفعلها، لهذا لم نجد وقتًا طويلاً لنقضيه معًا، لكن هذا لم يمنعنا من استغلال الأوقات المناسبة لمشاهدة أفلام الرعب الرخيصة معًا.

هل بسبب كل هذه الظروف لم أحدثه عنها؟ أتحدث عن سمر، عن حب الثلاثاء من كل أسبوع في درس اللغة الفرنسية بعام ٢٠٠١-٢٠٠٢ الدراسي. هل لم أفصح له عن هذا السر بسبب ضيق الوقت،

أم لأن كل منا لم يعرف قط كيف يفصح للآخر عن خصوصياته؟ كل هذا ليس مهمًا. ما يهم هو أنني أستعد الآن للذهاب لدرس اللغة الفرنسية مع مسيو عماد، نحن مجموعة مكونة من خمسة طلاب: شريف، أحمد الدغيدي، أنا، مروة وسمر صاحبة المنزل.

أحمد الدغيدي ضخم الجثة. يعاني من السمنة بصورة كبيرة. يرتدي نظارة مربعة. طالب منضبط وملتزم، أما شريف فلديه المؤهلات التي تفضلها كل المراهقات: طويل ووسيم. عينان خضراوان وشعر ناعم يُمكن تصفيفه في كل الصور والأشكال. لا بد أن حلاقه قال له ذات مرة "فتلة شعرك حلوة". مروة فتاة خجولة، بشرتها بيضاء كالحة، كأنها عادت إلى الحياة للتو بعد سبات عميق. تتحدث دائمًا بنبرة منخفضة كأنها تخاطب نفسها أو تفشي أسرارًا لأشباح لا يبصرها أحد سواها، أما سمر، فهي كنسمة صيف. مخلوق ملائكي: شعر شديد السواد، شديد النعومة، عينان واسعتان تتوسطهما دائرتان صغيرتان بلون العسل. بشرة بيضاء، لكنها على عكس مروة، تنبض بالحياة، وأهم شيء أن طولها مناسب لي! ما الذي سترتديه اليوم؟ أتمنى أن يقع اختيارها على البلوزة الحمراء والبنطال الأزرق الضيق. هو قصير بعض الشيء، يكشف عن ساقيها المستديرتين. أظن أن أستاذ عبد الرحمن والدها رجل متساهل، لهذا يتركها تحضر الدرس بهذه الملابس، أو ربما هو لا يعرف شيئًا عن الموضوع، لأن كل مرة أراها فيها ترتدي ما قد يكشف عن هذه الكنوز لا أسمع له صوتًا داخل الشقة.

لم أخبر الدغيدي أو شريف بما أنتوي فعله. لم أخبر أخي أيضًا. هذا أمر مؤكد. لدي خطة بسيطة: اليوم بعد انتهاء الحصة وتصوير الملازم سأترك لها بين الأوراق هذا الخطاب، سأصعد بنفسي مجددًا نحو شقتها الواقعة في الدور الثالث لأفعل هذا. أتمنى أن تفتح لي الباب بنفسها، وليس والدتها أو الأستاذ عبد الرحمن، وإلا قد أقع في مأزق، بل ربما لن أقع في مأزق، فلا أظن أن أي منهما يعرف الفرنسية. أنا لا أجيد الفرنسية، لكن أحفظ ـلا زلت أحفظـ صيغة إجابة السؤال المتكرر في كل الامتحانات لكتابة خطاب لصديقك الفرنسي لتهنئته بعيد ميلاده، لدعوته لعيد ميلادك، لزيارة مصر أو أي من هذه الحماقات التي تعلمناها في المدارس، في الدروس، في المجموعات. أنا شخص ذكي، سأغير الكلمات المطلوبة لنقل ما أريد:

“Je suis tres content de det'écrire cette lettre. Je´t'aime”

هذا هو نص رسالتي التي تركتها بين الأوراق وظللت أنتظر بعدها ستة أيام مرت كأنها ست سنوات، بل كأنها الدهر بأكمله، حتى حدث ما حدث. هو يوم الاثنين ـأكره يوم الاثنينـ أتوجه نحو منزل خالي لجلب شيء ما طلبته أمي من زوجته. لا أتذكر ما هو، أتذكر فقط أنني بالقرب من مدرستها، المطرية الثانوية بنات، شاهدت سمر تسير بجوار شريف، تضحك معه. تلك الخائنة تتمشى مع شريف الخسيس! هل يضحكان على خطابي؟ على كلماتي؟ لماذا لم يخبرني هذا الكلب وتلك الملعونة بكونهما على علاقة؟ هل في واحدة من تلك المرات التي طلب مني فيها شريف إعادة الأوراق لها بعد التصوير، كان قد سبقني ووضع

شيئًا ما، رسالة مثلاً؟ أظن أنه كتبها بالعربية. لا شك في هذا. ارى نفسي ثورًا بلا قرنين، لكن شريف يأتي ممسكًا بقرنين ليثبتهما فوق رأسي ويرحل ضاحكًا، يده في يد سمر. أتضاءل، لم اعد ثورًا، لكن مجرد عجل صغير بقرنين.

اليوم هو الثلاثاء، أكره يوم الثلاثاء، لا أعرف إن كان كرهي للثلاثاء يفوق كرهي ليوم الاثنين، لكن أنا، ذو القرنين، أجلس الآن صامتًا في بيت الأستاذ عبد الرحمن. أنظر بلوم بين الحين والآخر لسمر، لشريف، للملازم مسيو عماد. أكره الفرنسية. هي لغة مائعة ليس بها شيئًا من الخشونة. طلاسم وحروف ومقاطع كاملة تُكتب ولا تُنطق. أصبحت كل أيام الثلاثاء ثقيلة ومملة. لم أتحدث مع شريف عن الأمر وبالطبع لم أذكره لأخي، وبكل تأكيد لم أرفع عينيّ في وجه سمر.

مرت الأيام وها أنا أجلس الآن في لجنة امتحان اللغة الفرنسية، أجيب على كل الأسئلة المحفوظة بشكل مسبق، أولها بكل تأكيد هو: اكتب خطابا لصديقك باللغة الفرنسية تدعوه فيه لحفل عيد ميلادك يا ذو القرنين. هل كانت "ذو القرنين" مكتوبة؟ لا أدري!

* * *

سمعنا دوي الطلقات يتردد في الخارج. كنا نجلس داخل الخيمة حينما تلقينا على الفور الأوامر بـ"التقفيز" وارتداء السترة الواقية من الرصاص والتوجه لمخزن السلاح ليتسلم كل منا بندقيته، لنقف بجوار معداتنا. يجب أن نحرسها. نحميها هي وحدها، ففي النهاية نحن ضيوف

هنا. هذه ليست كتيبتنا. نحن لا نتحمل مسؤولية المهام القتالية. هو صيف ٢٠٠٨، أنا أحد جنود بعثة الأمم المتحدة والاتحاد الأفريقي في دارفور. تُعرف اختصارًا بـ(يوناميد). نحن أفراد سرية الإشارة جرى توزيعنا على كتائب من جنسيات مختلفة في الإقليم. هذه كتيبة رواندية ويبدو أننا قد نتعرض لهجوم من المتمردين، أو أنها مجرد مناوشات خارج القاعدة. لا أحد يدري حتى الآن.

في ظرف دقائق قليلة، كنا جميعا نقف هناك بجوار الحاويات التي خزنا فيها معداتنا، كل منا بـ"تقفيزته" الكاملة، مرتديًا سترته الخضراء الواقية من الرصاص. وزنها يقترب من عشرين كيلو، لكنها بالنسبة لي ليست ثقيلة، فأنا أخيرًا قد تمكنت من خفض وزني، بل ولدي جسد رياضي أيضًا، لكن هل كان قرارًا صائبًا؟ ربما لو كنت حافظت على هيئتي القديمة لما عبرت الكشف الطبي، لما دخلت الجيش، لما جئت إلى هنا. لا داعي للندم، فهيئتي الجديدة كانت قد أكسبتني قدرًا كنت أحتاجه من الثقة قبل الحياة الجامعية، لكن أنا الآن أقف مع باقي أفراد سرية الإشارة في القاعدة التي نحل ضيوفًا عليها في مدينة الفاشر. صوت الطلقات يتردد في الخارج. هناك حالة من التوتر والرعب تخيم على الأجواء، فنحن منذ أسبوع نعيش على تعيين القتال فقد توقفت حركة إمدادات الطعام وخلافه نحو الكتيبة، قالوا إن الرئيس السوداني عمر البشير يرفض خروجها من أحد الموانئ بسبب تحركات المحكمة الجنائية الدولية ضده، لكن ما سر هذه الطلقات؟ أرى الصول محمد لطفي يقول بحيرة تشوب نبرة صوته الريفية:

ـ ولاد الوسخة.. الناس شكلها بتقع بره زي الرز.

لم أره قط على مثل هذه الشاكلة، أغلب الضباط في حالة توتر لكنها في نفس الوقت ممزوجة بالثبات، لكن حالة صف الضباط عجيبة. أنظر للصول يونس فأراه يوشك على البكاء. هو ضخم الجثة وبطنه متكور كأنه امرأة حبلى على وشك الوضع. تعكس الإضاءة البيضاء لأعمدة الإنارة الموجودة في القاعدة احمرار أنفه المفلطح. أسمعه يهمهم:

ـ عايزين الليلة تعدي على خير عشان نروح لعيالنا.

ابتسمت رغمًا عن توتري، فرؤية لطفي أو يونس على هذه الشاكلة تشفي غليلي نوعًا ما. هما ينتميان إلى أسوأ صنف من البشر يُمكن مصادفته، سواء داخل الحياة العسكرية أو خارجها، لكن صوت دفعة جديدة من الطلقات يعيدني سريعًا إلى أرض الواقع. أتشبث ببندقيتي، نحن جميعًا في خندق واحد الآن. لا ندري ما الذي قد يحدث، مثلما لا يدري أغلبنا آلية عمل البندقية. لا أقصد أننا لا ندرك كيفية استخدامها، لا، بل جمعينا يعرف الأمر، فلا يوجد ما هو أسهل من الضغط على الزناد. صحيح أن ارتداد كعب البندقية في الكتف ربما يتسبب في خلعه أو أن صوتها قد يسفر عن إصابة بصمم مؤقت، لكن لا يوجد ما هو أسهل من الضغط على الزناد. حينما أتحدث عن الآلية أقصد طريقة عملها من الداخل.

أتذكر تلك المرة في الـ"هايكستيب"، في فترة التدريب قبل السفر إلى دارفور، حينما كنا نتعلم مكونات البندقية. بعض صف الضباط يفككون ويعيدون تركيب السلاح بمهارة، والبعض الآخر يثيرون الضحك، ليس ضحكنا نحن فقط بل أيضًا ضحك الضباط الذين سخروا منهم. قُل ربما من تواجدهم في وحدات قاهرية أنستهم ما تعلموه في "الميري". يتولى الصول يونس شرح آلية عمل البندقية بعد رحيل الضباط ويقول:

- البندقية يا عسكري منك له، بتعمل بالضغط وتُفرغ بالهواء.. بتعمل بالضغط وتُفرغ بإيه؟

- بالهواء يا صول يونس.

يسأل أحدهم -وهو محق- عن ما تعنيه عبارة أن البندقية "تعمل بالضغط وتُفرغ بالهواء؟"، فيجيبه بعصبية تعكس نوعًا من الجهل والحيرة:

- يعني تعمل بالضغط وتُفرغ بالهواء يا عسكري، طب كل السرية تقف انتباه.

نحن جميعًا نقف الآن في وضعية انتباه حقيقية؛ لا ننتصب ونضم ساقينا واضعين أيدينا خلف خياطة البنطلون ولا نرفع رأسنا في شموخ زائف يؤلم فقرات الرقبة نحو الأعلى، بل ننتبه إلى صوت دفعة جديدة من الطلقات سمعناها تأتي من الخارج، من خلف الحواجز الترابية

المحيطة بالمعسكر، وكل منا يتشبث بسلاحه، لكن فجأة اقول للصول يونس بسخرية تتخفى خلف نوع من الجدية:

ـ ما تقلقش يا فندم، البندقية بتعمل بالضغط وتُفرغ بالهواء.

ينظر الصول يونس نحوي في حيرة من أمره. أشعر أنه يرغب في قول شيئًا ما، لكنه لا يدري إذا كنت أحدثه بجدية أم أسخر منه. يتوقف صوت الطلقات لفترة. يأتي أحد قادة الكتيبة الرواندية ويتحدث مع قائد سريتنا. انتهت الأمور. كانت مجرد مناوشات. بعثرة فارغة للذخيرة في الهواء. أحد أشكال التهديد بعد رفع تقرير لا يصب في مصلحة المتمردين من قبل البعثة. نتلقى الأوامر بتسليم السلاح والانصراف نحو الخيام، لكن ـكإجراء احترازيـ سنرفع الحراسة على معداتنا.

أعود نحو الخيمة. أستلقي وأمسك بهاتفي المحمول، نعم هاتفي المحمول، فنظرًا لأننا خارج حدود القطر المصري وسنقضي سبعة شهور دون إجازة ولعدم وجود طابع قتالي لمهمتنا، فقد سُمح لنا بشكل سري بالسفر بهواتفنا المحمولة، لحسن الحظ كان هاتفي حديثًا نوعًا ما بمقاييس تلك الفترة ويتيح الاتصال بالإنترنت. أتفقد برنامج المراسلات الخاص ببريد (هوتميل) وأرى طلب إضافة يظهر أمامي. كان قد وصلني في آخر أيام العطلة التي سبقت سفري لدارفور. أتذكر مجددًا ذلك اليوم: أنا أجلس ـعلى غير العادةـ في المترو المزدحم في طريقي نحو المنزل بعد مقابلة عددًا من الأصدقاء الذين رغبوا في توديعي. هناك فتاة تقف بجانبي. أعلم أن المترو يعمل بضغط الركاب، أحيانًا قد يُفرغ وينساب

فيه الهواء لكن في الغالب هذا لا يحدث، أجد نفسي أنهض بدافع من الشهامة ـدون أن ألقي بالاً لكيف تبدوـ كي أدعوها لأخذ مكاني، لكنها حينما تجلس لا أمنع نفسي من رؤيتها. هي مخلوق ملائكي: شعر شديد السواد، شديد النعومة، عينان واسعتان تتوسطهما دائرتان صغيرتان بلون العسل، بشرة بيضاء، لكنها تنبض بالحياة، وأهم شيء أن طولها مناسب لي!

بعد أربع محطات، تحديدًا عند توقف القطار في غمرة، تهدأ الأجواء داخل عربة المترو، تنتقل الأمور من مرحلة العمل بالضغط إلى فترة التفريغ، ينهض الراكب الجالس بجانبها وأحتل مكانه بصورة تلقائية، أنا في مرحلة معقدة من حياتي، على وشك السفر نحو المجهول، على وشك إنهاء علاقة عاطفية للمرة الثانية على التوالي، لكني لم أحسم قراري بعد، وسمر عبد الرحمن تجلس بجانبي، صحيح أنني قد اقتربت من حسم قراري وإنهاء تلك العلاقة لكنني في نفس الوقت لست خائنًا، أشعر برجفة بسيطة تسري في جسدي. أنا مرعوب. لا أستطيع حسم قراري، بل أستطيع، لن أتحدث معها، هي بكل تأكيد لا تتذكرني، فهذا الشاب الجالس بجانبها لا يبدو كثيرًا مثل ذلك الأحمق البدين بعض الشيء، ذلك الأحمق الذي ترك لها رسالة بلهاء مكتوبة بفرنسية ضعيفة ـأكره الفرنسيةـ لكن يبدو أنها تعرفت عليّ بالفعل فأنا أسمع صوتها يقول:

- بعد إذنك.

أنظر إليها ونتحدث. تسألني إن كنت أتذكرها أم لا وأومئ برأسي ونتجاذب أطراف الحديث، هي تخرجت من كلية التجارة، وأنا من كلية الآداب. أقص عليها مسألة الجيش ودارفور وكل هذه الأشياء. نستعيد ذكريات درس الفرنسية ومسيو عماد والدغيدي ومروة وشريف.. تخبرني أنها لم تر شريف منذ انتهاء الصف الثاني الثانوي. أنا أول شخص تجمعها الصدفة به من هذه الحقبة. لا تقدم على ذكر الخطاب، ولا أنا أيضًا. تفتح حقيبتها، تخرج إحدى الأوراق وقلمًا وتطلب مني كتابة بريدي الإلكتروني. أفعل هذا وأودعها لأنزل في محطة حلمية الزيتون، فالعائلة قد انتقلت الآن من شارع إبراهيم الرفاعي. لم أعد أنزل في محطة المطرية، حيث تنزل هي.

بعدها بأيام وصلني طلب الإضافة، لكني لم أقبله فكما قلت أنا لم أحسم أموري بعد وأمر بفترة عاطفية معقدة. لا أرغب في إضافة الخيانة إلى كل تلك التفاصيل المتداخلة، لم أقبل الطلب حينها ولم أقبله اليوم أيضًا عقب عودتي للخيمة. تركته معلقًا وراسلت أخي لأطمئن عليه، وعلى أمي. هي تشعر بقلق شديد منذ سفري، أنفقت أموالاً كثيرة على المكالمات الدولية القصيرة لكي تطمئن يوميًا على ابنها الصغير، ذلك الذي وجدته فجأة بعيدًا عنها، بعد أن عاندها مجددًا ورفض اللجوء لواسطة قد تبعده عن هذه الرحلة، فهو يرى -أنا أرى- أن عملية التحول لا بد وأن تمر بهذه التجربة. أستلقي على ظهري وأغفو، فاليوم لا توجد خدمات بالنسبة لي، لكن حينما أستيقظ أسمع صوت الطلقات. لا أعرف إن كانت حقيقية أم لا. لا أقوى على الحراك. أشعر

بالرعب مجددًا. ها قد جاء شلل النوم، ها قد جاء الجاثوم! أرى ساقيه فقط ـكالمرة الأولىـ لكنهما بلا مخالب، هذه المرة هما ساقان مستديرتان بيضاوان، تنتهيان بقدمين صغيرتين طُليت أظافرهما باللون الأحمر، ها هي الهلاوس السمعية تأتي، لكنها هذه المرة تُحدثني بالفرنسية.

***

أجلس أمام حانة (بيكاسو) في ساحة بلاثا دي لا ميرثيد بمدينة مالاجا. هو صيف ٢٠٠٩ وأخيرًا تمكنت من الحصول على منحة للدراسة لمدة شهر في إسبانيا. الدراسة؟ لا أظن هذا، فسعيي وراء المنحة كان مجرد أداة لتسهيل حصولي على تأشيرة السفر. أنا أعمل بالفعل في وظيفة ثابتة منذ سبعة أشهر. بدأت أعمل بعد أسبوعين فقط من عودتي من دارفور. حالفني التوفيق كثيرًا في هذا الشأن، لكن الجو حار بصورة غير طبيعية. لم أتوقع قط أن يكون الجنوب الإسباني بمثل هذه الرطوبة في شهر يوليو، لكن لا بأس، فقد تحملت عواصف "الهبوب" الدرافورية وتقلبات المناخ يوميًا هناك، لذا فهذه الرطوبة الخانقة، هذا العرق الذي ينساب على جبهتي لن يؤثر فيّ كثيرًا، فالعصائر الطازجة والسانجريا والمشروبات الغازية كلها حلول لمواجهة الأمر. تتبقى خمس دقائق وتأتي. أتحدث عن ميريام. هي فتاة لطيفة. لم أتخيل قط أن أتعرف على شخص من قرغيزيا، لكن ها أنا هُنا الآن المصري الذي أدى الجانب الأكبر من خدمته العسكرية في دارفور يجلس في إحدى ساحات مدن الجنوب الإسباني ينتظر فتاة من قرغيزيا.

مرت ثلاثة أيام فقط على وجودي هنا. قضيت اليوم الأول أتعافى من آثار الرحلة: السفر جوًا من القاهرة إلى مدريد والوصول في وقت متأخر والانتظار حتى صباح اليوم التالي داخل المطار، ثم استقلال المترو حتى محطة قطارات (أتوتشا) الرئيسية، فحجز تذكرة القطار فائق السرعة المتجه إلى مالاجا، وفي النهاية استقلال سيارة أجرة نحو أقرب نقطة للشقة التي سأسكن بها.

لم أؤجر الشقة بالكامل بالطبع. لا يمكنني تحمل هذه التكلفة، بل فقط غرفة، لكن لدى وصولي اكتشفت أن الغرفتين الأخريين خاويتين. لم يؤجرهما أحد من الطلبة الأجانب الذين يأتون إلى إسبانيا للدراسة. الدراسة؟ لا أظن هذا فأغلبهم سواء كانوا سافروا على نفقتهم أم عبر منحة يقضون فترة الصيف في التنقل من مدينة إلى أخرى داخل شبه الجزيرة الإيبيرية، مثل ميريام. هي فتاة لطيفة. طويلة نوعًا ما، لها ملامح آسيوية رقيقة، لكن إسبانيتها ضعيفة؛ ربما لهذا لن تدرس معي في نفس الصف.

تعرفت على ميريام في الجامعة بعد يوم من وصولي، لم تكن قد حددت أين ستسكن بعد، فأخبرتها بمسألة الشقة وطلبت تفقدها. راقت لها كثيرًا. على الفور اتصلت بالمالكة، وهي للمصدفة البحتة أستاذة في جامعة مالاجا وإحدى صديقات واحدة من أساتذتي في جامعة القاهرة. هكذا اتفقت هي وميريام على تأجير الغرفة الكبيرة التي تضم فراشين. تعجبت في البداية، لكن اكتشفت لاحقًا أن هناك صديقة أذربيجانية لها تدعى ليديا. تلك الصديقة سيروق لها كثيرًا

الانتقال للعيش معنا. المشكلة الوحيدة أنها وصلت منذ يومين وأقامت في "منزل عائلة"، لكنها تشعر بالإحباط، فمنزل العائلة هذا ليس به أحد سوى سيدة عجوز لا تفهم منها شيئًا، لذا طلبت مني ميريام هذه الخدمة، بعد انتهاء اليوم الدراسي ستتقابل أنا وهي في ساحة بلاثا دي لا ميرثيد لنتوجه لإقناع السيدة العجوز بترك ليديا ترحل وخصم مبلغ مالي صغير فقط من ذلك الذي سددته لتأجير غرفة في منزلها.

أرى ميريام قادمة تلوح لي من بعيد، أنهض من مقعدي، أعانقها ونذهب لاستقلال الحافلة نحو منزل السيدة العجوز، نصعد للدور الثالث. أدق جرس الباب ونسأل عن ليديا. يبدو أن هذه العجوز لا تُطاق فعلاً: ترتدي نظارة بعدسات صغيرة، شعرها الرمادي قصير وخشن، ملامح وجهها قاسية، حينما شاهدناها تسير من الخلف، بدا كأن أردافها الضخمة تتأرجح كمؤخرة فرس نهر، لكن ها هي ليديا تأتي.

ليديا، مخلوق ملائكي، لكن به لمسة شيطانية، هي النسخة المثيرة من سمر: شعر شديد السواد، لكن خصلة طويلة منه مصبوغة باللون الأصفر، بشرة يبدو أنها كانت شديدة البياض، إلا أن صاحبتها قررت إكسابها لونًا برونزيًا، عينان واسعتان تعكسان كل شيء ولا شيء، ساقان مصبوبتان، أكثر استدارة من ساقي سمر وصدر مرفوع ومكتنز وهناك وشم لأفعى على كتفها الأيمن. تملكتني الدهشة، فلماذا لا اتوقف عن الدوران في تلك الحلقة المفرغة؟ لكن اسمع صوت العجوز الأجش يسألنا عن سبب الزيارة فيخرجني من تلك الحالة. بدأنا سلسلة

من المفاوضات التي كانت مليئة بنعيرها ولعناتها على اليوم الذي قررت فيه فتح باب تأجير بيتها للطلبة الأجانب، لكنها ارتضت في النهاية خصم نسبة ٢٠% فقط مما سددته النسخة المثيرة من سمر. إسبانيتها اقوى من ميريام بعض الشيء، لكنها لا تزال في طور ضعيف، لهذا كانت محادثاتنا نحن الثلاثة خليطًا بين الإسبانية، والإنجليزية، ولغة الإشارات.

قررنا جميعا الذهاب للشاطئ بعدما انتهينا من تسكين ليديا معنا في الشقة. شاطئ مدينة مالاجا ليس مبهرًا، تشعر أن الرمال مخلوطة بالتراب ودرجة صفاء المياه ليست فائقة، لكن الأجواء العامة مبهجة كأي شاطئ في العالم. كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أجلس بجانب فتيات يرتدين البكيني، ألامسهن، أمازحهن، لكن أنا لست خائنًا، فما زلت في مرحلة عاطفية معقدة في حياتي. لم أتمكن من حسم الأمور منذ أيام دارفور، أنا مجرد فاشل، فبجانبي تجلس ليديا، النسخة المثيرة من سمر، أضع ذراعي فوق كتفها بينما نلتقط صورًا عدة، والمشكلة أنني لا أشعر بأي انجذاب حقيقي نحوها. من ينكر جمالها وإثارتها إما أحمق أو أعمى، لكن هناك شيء آخر، لا أشعر بهذا التقارب بيننا لكوني مميزًا، بل أعتقد أنها قد جاءت لتفعلها هنا وسط حرارة الجنوب الإسباني مع أيًا كان. ربما علمت هذا منذ اللحظة الأولى التي قالت فيها لي عقب نجاح صفقتنا مع السيدة العجوز تلك العبارة:

- في العالم سبع عجائب، يبدو أنك الأعجوبة الثامنة. أعجوبة جديدة في مصر مع الأهرامات.

يا لها من بلاهة: مصر تعني الأهرامات، إسبانيا هي الثيران، فرنسا؟ يا أهلا بالعطور! أذربيجان؟ لا أدري حقًا! لكن لا مشكلة، فأنا لن أقضي وقتًا طويلاً معها على أي حال. الشقة المشتركة من أجل النوم فقط، أما باقي الوقت فهو للخروج، التنزه، السفر لمدن قريبة ولأخرى بعيدة أيضًا. لا وقت لدي لسمر التي لا يزال طلبها معلقًا على برنامج مراسلات (هوتميل) و(فيسبوك) أيضًا، أو حتى النسخة المثيرة منها الموجودة معي على أراضي الأندلس.

اتجهنا نحو المنزل، ألقي مزحة هنا وأخرى هناك بينما تضحك ليديا. حسنًا ربما لا أشعر نحوها بانجذاب، لكن لا أرغب في أن أوصف بثقيل الظل، لذا لا بد وأن أفعل هذا. وصلنا للشقة واستحم كل منا، أخبرتنا ميريام بأنها ستتركنا وتذهب لمقابلة صديق إسباني تعرفه منذ فترة عبر الإنترنت، هذا الصديق سافر من مدينة إشبيلية لزيارتها، لكن من طريقة نطقها للكلمات، أعلم أنه أكثر من صديق. ببساطة هذا أمر لا يعنيني.

أتوجه لغرفة المعيشة لمشاهدة التلفاز، فبعد ساعتين سألتقي بساشا، الفتاة الروسية التي تعرفت عليها في محاضرة اليوم واتفقنا على التنزه معًا في المساء، تمر دقائق قليلة وأرى ليديا تأتي. تضع علبة السجائر على الطاولة المقابلة وتجلس على نفس الأريكة، بجواري. لا أعرف لماذا يبدو ملمس بشرتها بهذه البرودة، فالجو حار للغاية، لا أدري حقًا. تمسك بجهاز التحكم وتغلق التلفاز. أعرف ما هو قادم: ها هي تأتي لتجلس على ساقيّ، تنظر نحوي بعينيها الواسعتين، تقبلني

وأتجاوب وشفاه تلتهم شفاه. ترفع يدي وتضعها على أسفل ظهرها، لكن بشرتها باردة للغاية، تمد يدها نحو تلك العصا المتخشبة وتقول:

ـ دعنا نرى الأعجوبة الثامنة.

لكني أمسك يدها وأتوقف عن تقبيلها. أخبرها أن الأمور لا يجب أن تسير بهذه الطريقة. لا أرغب في فعل شيء، ليس لدينا حتى واقيات ذكرية. هذا هو التعهد الذي قطعته على نفسي، لن أجلب أي واقيات للمنزل حتى لا أقع في المحظور. لم تظهر أي انفعال. ظلت ملامحها جامدة، ثم توجهت نحو الطاولة لتخرج سيجارة وتشعلها قبل أن تخرج من الغرفة لأسمع بعدها بثوان صوتها وهي تصفع الباب. أحاول نسيان الأمر بالاتصال بساشا لنقدم موعدنا، توافق بترحاب. بعدها بنصف ساعة التقينا في شارع ماركيس دي لاريوس، أحد أكثر شوارع المدينة أناقة وتنوعًا: متاجر ومطاعم ومحلات للمثلجات والعصائر وعروض فنية يومية: أشخاص يتنكرون في هيئة شياطين وعرائس بحر وسحرة وأفاعي وروبوتات. هو عالم افتراضي واقعي على أرض الواقع الخيالي لطفل عين شمس، لجندي دارفور، لرجل مالاجا.

إذا كان هناك تعريفًا للسعادة فهو ساشا. تلك الفتاة الشقراء القصيرة ذات العينين الزرقاوين تبدو كأنها دمية، لكنها على عكس أغلب الدمى، لها روحها الخاصة فهي مرحة وذكية وصادقة، صادقة لدرجة أنها أخبرتني بأن مشكلتها الوحيدة كانت دائمًا هي الوقوع في حب الحمقى، والدخول في علاقات مع حمقى، لهذا فقد قطعت عهدًا

على نفسها ألا تشهد هذه الرحلة أي بلاهات. يبدو أن هناك أشكال مختلفة للحماية، بعضهم قد يشتري الواقيات لتحصين نفسه ضد الأمراض، الحمل أو أي مسؤوليات مستقبلية، والآخر لا يشتريها ليضع نفسه في خوف من كل ما سبق، وفي النهاية هناك من يفعلون ما تفعله ساشا، يبتكرون واقيات افتراضية كشرنقة تحيط بهم داخل عالمهم الخاص.

قضينا ساعات طويلة، نتمشى ونتحدث ونضحك. عدنا في النهاية عند نقطة البداية، مدخل شارع ماركيس دي لاريوس. لقد تأخر الوقت ويجب عليها أن تعود للمنزل. أوقف لها سيارة أجرة وأودعها وأتوجه نحو شقتي -شقتنا أنا وميريام وليديا- أسير في شبكة من الشوارع الجانبية، حتى أصل للعمارة. أصعد للدور الثاني وأفتح الباب وأفاجئ بصوت آهات، يأتي من هناك، من غرفة ليديا. لا وجود لحذاء ميريام. يبدو أنها ستقضي الليلة مع صديقها الإسباني، لكن هناك حذاء آخر، حذاء يخص رجل آخر. يتعالى صوت آهات ليديا.. للخلف در يا عسكري محمد! أستدير نحو الخلف ثم أغلق الباب وأنزل. أسير في شوارع لم أمُرّ بها أو أعرفها من قبل. لم أر خوان أو خوسيه أو جابرييل -هذا الذي كانت ليديا تتأوه بينما يخترقها- يضع قرنين فوق رأسي. لم أر نفسي أتضاءل إلى عجل صغير بقرنين، بل على العكس أرى نفسي أتعملق. لا أمتلك قرني ثور، بل قرني وحش أسطوري. أجد سكيرًا يفرغ ما في جوفه عند إحدى النواصي. حينما يرفع رأسه نحوي أرى عينين زائغتين ووجه ممتقع، لا أدري لماذا في تلك اللحظة بدأت في

إصدار أصوات مخيفة لأركض سريعًا نحوه؛ لا بد أن تأثير السكر قد أصاب عقله بنوع من الخرف وتأثير الآهات أصاب عقلي بنوع من الجنون. أراه يركض خائفًا وأبدأ أنا في الضحك بطريقة هستيرية. أنا أحد الموتى الأحياء، ففي هذه المرة الفتى السمين لن يموت في النهاية. أنا كتلة صلبة قد تشكلت بالفعل، أنا من اصطفاه عنتر عضمة. أنا من أوقع بعنتر عضمة. أكره يوم الثلاثاء -وأيضًا الاثنين- لا أدري أيهما أكره بصورة أكبر، أنا قصة حب رعب آهات. لا أعلم شيئًا، بل أعلم ثلاثة أشياء:

أكره اسم سمر.

لن أسافر أبدًا لأذربيجان.

حياتي تعمل بالضغط وتفرغ بالهراء.

متلازمة أنضرتيكا

حينما اعتقدت أنني رأيته للمرة الأولى تملكني إحباط شديد. اكتشفت لاحقًا أنه لم يكن البطل المنشود، ارتطمت مخيلة الطفولة بقسوة الواقع وجعلت لقاءنا الأول فاترًا. ظل هذا الفتور قائمًا بيننا، هو وكل من يمتهنون مهنته. لا أقول إنني التقيت الكثير منهم، لكن وجودهم في حياة البشر لا غنى عنه أيًا كانت الحالة، وبالحالة أعني: سواء كنت حيًا أم ميتًا.

ظننت أن الظلام سيحل قبل دخوله. ستتسيد الأجواء إضاءة زرقاء وستدق أجراس جنائزية. سيقف الكل مشدوهًا. سننتظر دخوله بين أبخرة وألسنة من اللهب. سيتقدم ببطء بجسده العملاق مرتديًا معطفه الأسود الجلدي وقبعته الدائرية التي تصطبغ بنفس اللون، لكن أيًّا من هذا لم يحدث، فقد كنا في منتصف الظهيرة. الكل يتصبب عرقًا، بعضهم يبكي والآخر يدعو، وقلة قليلة هي التي حافظت على تماسكها، ومن وصل كان رجلاً أسمر ذا بطن متكور وشعر أشهب خشن يرتدي نظارة شمسية بنية ويزين يده الممسكة بعصا خاتم على

شكل ثعبان. لم يأت بمفرده مثل بطل المخيلة، بل جاء بصحبة ثلاثة يرتدون جلابيب بنية متربة وهم على أهبة الاستعداد لأداء مهمتهم.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أشاهد فيها "المعلم حسن" والمناسبة هي دفن جدتي. حينها لم أكن أعرف الفارق بين "التربي" و"الحانوتي". ظننت أن من سيأتي لإيداع "الحاجة رتيبة" مثواها الأخير هو الحانوتي، ولا أعني هنا أي حانوتي ـسواء كان شرقيًا أم غربيًاـ بل ذلك الذي يحل الظلام قبل دخوله ثم تتسيد الأجواء إضاءة زرقاء بينما يتقدم على وقع أجراس جنائزية، أو باختصار "أندرتيكر" المصارع.

تتميز علاقتي بالمصارعة بنفس خصوصية صلتي بالموت، فقد كانت أحد سبل الاستمتاع والهروب في زمن طفولتي، بطلها الأوحد هو مارك كالاوي، أو الرجل المعروف داخل الحلبة باسم "أندرتيكر". هي الآن أيضًا أحد سبل فرار الرجل البالغ الذي يكتب هذه الكلمات نحو طفولته مرة أخرى. لا يوجد من هو أحمق من الإنسان: في الطفولة يحلم بالهروب نحو البلوغ لكنه حينما يصل لمبتغاه يرغب في استرداد تلك الأيام ويتيه بين الجانبين فيلتف حبل العمر حول رقبته ويصرعه ببطء وبرضاه دون أن يحقق آمال الماضي. ستحاول أصابعه التشبث باستماتة بأفعال الحاضر وأحلام المستقبل كأنها آخر سبل النجاة، لكن لا طوق سينقذه من الغرق، فقانون الطفو يبطل تأثيره هنا.

علاقتي بالموت هي الأخرى قائمة منذ الصغر وظلت تتطور بمرور السنوات. لا أتحدث عن وفاة الأقربين كالجدة والعم والأب وخلافه،

أو أولئك الأقارب الذين لا تسمع عنهم سوى لحظة رحيلهم عن الحياة، بل عن تلك الساعات التي قضيتها في المقابر إجباريًا.

لم يكن لقائي الأول بالمعلم حسن هو أول زياراتي للمقابر، و"القرافة" تشغل حيزًا لا بأس به من طفولتي، فعلى النقيض من أغلب معارفي، كانت العائلة تفضل تمضية أول أيام العيد هناك، في حوشنا الواقع بمقابر صلاح سالم. لم أستسغ قط هذه المسألة؛ لم أصل لإجابة مقنعة عن جدواها الروحانية، وكأن من يرقدون أسفلنا سيسعدهم مجيء معارفهم القريبين والبعيدين وأطفالهم للاحتفال بالعيد معهم، بل ربما أنهم لو استطاعوا الحديث لصرخوا من أسفل التراب، لنهروا أشقاءهم وأبناءهم عن زيارتهم في هذه الأيام، خاصة وأنه لا أحد يقبل -سواء كان حيًا أو ميتًا- أن تظن طفلة أن المقابر هي "العريش". ما زلت أتذكر إحباطها، إحباط تلك الطفلة في أول زيارة سنوية لها للمقابر حينما رأت التراب وظنت أنه رملاً وسألت أين ذهب البحر الذي زارته قبلها بعدة شهور في مصيف العائلة.

كنت أعتقد في صغري أن المصارعة حقيقية. لم أكن أعلم بمسألة السيناريوهات المسبقة ووجود فريق كامل للكتابة والإبداع لإخراج العروض بمثل هذه الصورة، وربما لهذا ظننت أن الحانوتي هو التربي وأن الأخير على أرض الواقع سيرتدي نفس ملابس "أندرتيكر" على الحلبة. أدرك الآن الفرق بينهما، بل وبت أعلم أيضًا أن الرجال الثلاثة ذوي الجلابيب البنية المتربة الذين جاؤوا مع "المعلم حسن" هم "الحفارون" المسؤولون عن تنفيذ الأعمال اليدوية لفتح وإغلاق القبر.

كنت أعتقد في صغري أيضًا أن الجميع لا بد وأن يذهبوا لزيارة موتاهم في أول أيام العيد ليمروا بنفس السيناريوهات المكتوبة مسبقًا: فكل العائلات تتفق على التجمع هناك في السابعة أو السابعة والنصف على أقصى تقدير، لكنهم يصلون غالبًا نحو التاسعة ويرحلون مع آذان الظهر. لا بد أن الكراسي في أحواشهم لن تكون كافية وسيضطر بعضهم للوقوف في الخارج على الأرض المتربة أو الجلوس أرضًا. يذهبون محملين بتلك المخبوزات التي لا تُرى إلا في الأعياد والمقابر: الفطير بالينسون والشوريك لتوزيعه على الفقراء. هم ليسوا بفقراء غالبًا؛ هم محترفون يتجولون بين الأحواش، كل منهم يحمل على كتفه شوالا من القماش يمتلئ بالفطائر والفاكهة والنقود أيضًا، فلا بد أن يأتي رب كل عائلة بظرف مليء بأوراق نقدية من فئات مختلفة ليوزعها على كل من يمر. هؤلاء الفقراء الذين ليسوا بفقراء. المقرؤون الذي يأتون ويجلسون القرفصاء ويشوهون القرآن بأصواتهم المزعجة ليسوا بمقرئين، فتلاوتهم خاطئة وينسون- ربما يلتهمون- بعض آياته.

هذا سيناريو مسبق كنت أحفظه عن ظهر قلب وظننت أن الكل يُشاركني فيه. كنت أؤمن بأن الجميع يذهبون لزيارة موتاهم وهناك سيبكون. سيتلون القرآن قليلاً، قبل أن يشرعوا فجأة في الحديث عن شؤون الدنيا، بل والمزاح والضحك أحيانًا بينما يتناولون إفطارهم كأنها رحلة في حديقة، لكن البستان لا بد أن يطرح شيئًا ما حتى ولو كان مقفرًا، لذا قد يتوتر الوضع أحيانًا بين تلك العمة وقريبة بعيدة أو بين ابن العم ذلك وعمه، بعد الحديث عن ذلك الراحل أو ذاك ومن تركه

وما تركه وبعض الخلافات، بل ربما الكثير منها، فالموت هو الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل الشك، لكنها دائما ما تثير الجدل في عالم الأحياء وبين قاطنيه.

ربما لكل هذا أحببت المصارعة و"أندرتيكر"، لأن ما يحدث على الحلبة بدا لي أكثر واقعية من كل هذا الهراء. ربما أنا مجرد أبله يحاول خلق صلات غير موجودة بين الخيال والواقع، الحياة والموت، حياتي والكتابة، لكن لا أجد تفسيرًا لتعلقي بهذا الرجل، بل وحتى لا أعلم سبب غضبي حينما أستمع لطريقة ذلك المذيع المصري الكوميدية في نطق اسمه: "أنضرررتيكا!"، فمعه كانت الـ"D" تتحول إلى "ضاد" والـ"R" التالية لعدة راءات مع حذف الـ"R" الأخيرة دون أي سبب معروف. لكن من أنا لأحكم على نطق أحد أو ما قد يفعله المصريون باسم أحد أساطير المصارعة؟ فالكل يراها مجرد تفاهة يحبها الأطفال ومعدومو العقل. هي مجرد سيناريوهات مسبقة ينفذها بعض الرجال مفتولي العضلات على الحلبة وتبث تليفزيونيًا ليتسلى بها قوم من الحمقى، نكني رغمًا عن هذا أراها أكثر واقعية من زيارة المقابر السنوية في الأعياد ومشهد طفلة تبحث عن البحر بين زوابع من التراب وهي تقف على أرض يرقد تحتها الآلاف.

الحقيقة وراء المطرية

هو الأسبوع الأول من مايو ٢٠١٧ لكن الحرارة تقترب من ٤٠ درجة مئوية. لا فائدة من تشغيل المكيف، فلم نتصل بالفني لإجراء صيانته الموسمية بعد. أسمع صوتها يأتي من المطبخ ولا مفر من تلبية هذا النداء المقدس، فقد نفد الحليب والزبادي. هما العنصران الأساسيان في عشاء الطفلة وكالعادة نسيتْ إخباري صباحًا وأنا في الخارج أشتري ما ينقص من مستلزمات البيت، لهذا سأضطر لارتداء ملابسي بتثاقل واستياء وأنزل لجلب ما نحتاجه. لن ألومها هذه المرة، فهذا الحر كفيل بصهر أعتى العقول، وربما يكون المناخ في الخارج ألطف مما عليه الأمر داخل الشقة. هو أمر وارد، فتلك الجدران تمتص منذ الصباح أشعة الشمس وحينما يحل المساء تفرغ شحنتها الحرارية الملتهبة إلى داخل الشقة.

أصبت في تخميني. أدركت هذا الأمر بمجرد خروجي من العمارة، فهناك نسمة خفيفة من الهواء. المتجر ليس بعيدًا بل يقع على بعد دقيقتين في شارع عين شمس، لكن الجو هنا أفضل من الشقة، لذا سأتمشى قليلاً نحو ميدان حلمية الزيتون وفي طريق العودة سأجلب

الحليب والزبادي وربما جاموسة عُشر لتحقيق الاكتفاء الذاتي ولتجنب تكرار هذا الموقف مستقبلاً. اسير بهدوء، أتنقل بين الرصيف وبحر الشارع كالعادة. لا يمكنك السير على الرصيف فقط في ظل وجود إشغالات المتاجر المختلفة، وبالمثل لا تستطيع السير في بحر الشارع فقط بين تكاتك وسيارات وحافلات غاضبة. حتى "فان ديزل" نفسه سيحتاج بعض الوقت للتأقلم على السير أو القيادة في هذا الشارع، فـ"السرعة والغضب" هنا لهما تعريف آخر، غير ذلك الذي اعتاد عليه في سلسلة أفلامه الشهيرة.

أصل لميدان حلمية الزيتون. الجو هنا حقًا أفضل بكثير مما عليه الأمر في الشقة. هل أعبر الميدان وأذهب للجلوس على قهوة السعداوي لبعض الوقت؟ بينما أفكر في الأمر أسمع نعيقه، يأتي الميكروباص مسرعًا بينما يهتف التباع وهو يتعلق ببابه:

- مطرية وايلي والزاوية! مطرية وايلي والزاوية!

يقف الميكروباص أمامي بينما يهبط من يهبط ويصعد من يصعد. ينظر لي التباع قائلاً:

- مطرية يا هندسة؟

أحرك رأسي في إشارة للرفض، لكن تركيزه الآن لا يبدو منصبًا عليّ فنظراته تتوجه لشخص ما يقف بجانبي. أسمعه يسأل بينما يُقسم اسم المطرية بمكر الى جزئين:

- ما طرية يا أبله؟

يأتيه الرد بصوت أنثوي حاسم لكنه لا يخلو من الشقاوة:

- ما طرية إلا هي يا روح أمك!

- أموت أنا!

أراها تبتسم وتستعد لعبور الشارع بينما ينطلق الميكروباص في طريقه لصعود الكوبري للتوجه لميدان المطرية. يعلق التباع جسده بالباب بذراع واحدة، يمد نفسه ككائن مطاطي نحو الخارج بينما يواصل نعيقه:

- مطرية وايلي والزاوية.. ما طرية أوي!

لا أعرف إذا كان الأمر تحرشًا صريحًا من التباع بتلك العشرينية المكتنزة ذات العباءة السوداء والشعر المصبوغ برداءة، أم أن هناك معرفة مسبقة بينهما، لكن فجأة تجعلني تلك المغازلة السوقية أسأل نفسي عن السبب وراء تسمية الحي الذي قضيت به ٣٠ عامًا -هي كل عمري- بالمطرية. أعتقد أن الأمر لا يتعلق بـ"طراوة" الجو أو "طراوة" النساء. لا بد أن هناك سبب معقول وراء تلك التسمية التي دفعت التباع للتفوه بعبارة رغمًا عن سوقيتها، تحمل قدرًا لا بأس به من الذكاء الفطري لتنفيذ معاكسة مبتكرة.

نبذت فكرة الجلوس على قهوة السعداوي. سأجلب الحليب والزبادي -لن أجد الجاموسة العُشر هنا بكل تأكيد- وأعود للمنزل،

سأخبر فتاتي بأنني غدًا سأخوض مغامرة لمحاولة العثور على إجابة لأحد الأسئلة الوجودية. لن أسعى لمعرفة كيف بدأ الخلق، بل فقط الحقيقة وراء المطرية.

* * *

يخالجني شعور الدوخة الصباحية المعهودة. لا أتذكر متى كانت آخر مرة استمتعت فيها بنوم هادئ، لكن لا بأس، فقد اعتدت على المسألة. هذه الليلة كانت صعبة على الجميع، حتى من لا يعانون من اضطرابات في النوم، بركة العرق التي عثر عليها الكل صباحًا فوق الأسرة خير دليل على هذا. تحمّمت سريعًا، لم أتناول إفطاري كالعادة وبدأت الرحلة. كنت أعرف أن المحطة الأولى لن تساعدني في التوصل لأي نتائج، لكن ما المانع من المحاولة؟ فربما أكون مخطئًا، ربما تساعدني هذه التجربة على تخطي رهاب المصالح الحكومية الذي أعاني منه، قد أجد هناك ـ في رئاسة حي المطرية ـ الإجابة الكاملة أو حتى أجد دليلاً واحدًا يساعدني على المضي قدمًا، لكن كل هذه الأحلام الصباحية تبخرت بمجرد الوصول.

ـ أنت جاي تهرج يا أستاذ؟

هذه كانت الإجابة التي تلقيتها. فبعد وصولي إلى مقر رئاسة الحي، سألت عن قسم الاستعلامات، لكن يبدو أن مثل هذه الأمور مُحرّمة،

فلا يوجد شيء يحمل هذا الاسم هنا، لكن إذا أردت أن تسأل عن شيء ما، فعليك البحث عن الأستاذ فلان في الدور الثاني. لم يكن العثور على الأستاذ فلان صعبًا. وجدته يجلس خلف مكتبه المعدني. جبهته تتصبب عرقًا، نظارته مائلة للأسفل فوق أنفه. هو يراجع ـأو يتظاهر بمراجعةـ بعض الأوراق. عرفته بنفسي: محمد الفولي، صحفي ومترجم وكاتب وسألته بكل أدب عن إذا كان يمكن للحي توجيهي لمعرفة السبب وراء تسمية المطرية بهذا الاسم، لكنه ظن أنني أمازحه أو أرغب في تضييع وقته. لم يصدقني حينما أخبرته بأنني لا أمزح وقال لي بحسم:

ـ اتكل على الله يا أستاذ. قال اسم المطرية قال. أنت شكلك فاضي.

لم تعجبني إجابته بالطبع، فأنا رجل ذو مشاغل عدة، بل أن هذا ليس يوم عطلتي الأسبوعية، ويجب أن أصل في تمام الرابعة عصرًا إلى مقر عملي بحي الزمالك، لكن هذا الرجل لا يدرك أن رغبتي حقيقية، لذا قررت تغيير قواعد اللعبة. أبرزت له كارنيه نقابة الصحفيين مزينًا باسم الوكالة الأجنبية التي أعمل بها وأريته العبارة المكتوبة في البطاقة والتي توصي بتسهيل عمل حاملها. عدّل من وضع نظارته، استند بظهره إلى مقعده، شبك أصابع يديه فوق المكتب ثم نظر لي قائلاً بسماجة:

ـ حتى لو عارف إجابة سؤالك، مفيش رد. أنت صحفي؟ لا يُمكن أعمل معك حوار من غير تصريح. شرّفت يا أستاذ.

خرجت دون الشعور بأي غضب، فاستعدادي المسبق لحدوث هذا الموقف هيأني لتقبله بكل سلاسة. كنت أعرف أين ستكون محطتي التالية، ففي الليلة السابقة التي لم أتمكن فيها من النوم، أجريت بحثًا سريعًا على الإنترنت وتوصلت إلى نظريتين حول سبب تسمية المطرية. تتعلق النظريتان بمكانين لم تطأهما قدمي من قبل، على الرغم من مروري أمامهما مئات المرات، بل ربما أكثر من ألف مرة، ولا يوجد وقت ملائم أكثر من الآن لزيارتهما.

***

وصلت إلى مسجد المطراوي بعد نصف ساعة تقريبًا. ارتفعت حرارة الجو بصورة كبيرة. يفترش مجموعة من الفقراء المدخل ويقف أمامه عدد من الباعة، بعض الحوامل عليها أقراص من المشبّك والحمص والحلوى، وأخرى مزينة بقبعات وطراطير وأقنعة سفاح فيلم (Scream). تلتف أسلاك تتدلى منها مصابيح كهربائية ملونة على واجهة البناء. لا بد أن مولد المطراوي اليوم أو غدًا. يؤكد أحدهم الأمر لي. أرى بناية من دور واحد -لا أدري كيف لم ألحظها من قبل- ملاصقة للجامع وعليها لافتة تفيد بتبعيتها لوزارة الأوقاف. أصعد السلم لأجد رجلاً يدخن سيجارة عند مدخل يفضي إلى ممر تتفرع منه عدة غرف مكتبية. أخبره بأنني صحفي يرغب في كتابة تقرير عن المسجد ومولد المطراوي. أسعى لمعرفة من هو المطراوي الذي قرأت أن الحي اتخذ اسمه منه. أجابني بأن أفضل من قد يجيب على سؤالي هو أحد من نسله:

"الشيخ مرسي شيخ الجامع أو خادم المسجد" وفي الأسفل قد اجد أحدهما. أهبط مجددًا، أقف أمام الباب، أمسح العرق المتصبب على جبهتي، ألتقط أنفاسي، أخلع حذائي وأدخل.

المسجد صغير من الداخل، ليس به أي شيء غير تقليدي، توجد به ثلاثة أو أربعة أقواس على الطراز القرطبي على الرغم من الطابع المملوكي لمئذنتيه وقبته في الخارج. لا أشغل بالي كثيرًا بهذا التناقض. أسأل أحد الغلابة ممن افترشوا الأرض عن الشيخ مرسي فيخبرني بأنه ليس موجودًا، لكني أرى خادم المسجد خارجًا من غرفته. هو رجل قصير، ممتلئ للغاية، ذو ظهر محني، تزين رأسه طاقية صلاة بيضاء ويسير بصعوبة داخل جلبابه البني، أكرر نفس الكذبة داخل بيت الله: أنا صحفي يرغب في كتابة تقرير عن مولد المطراوي وأبحث عن المساعدة. رحب الرجل بالأمر لكن يبدو أنه لا يدري شيئًا، فاقتصر كل ما قاله على أن "سيدنا المطراوي" من المغرب، لكن إذا أردت المزيد من المعلومات فتلك اللوحة المعلقة إلى يمين الباب قد تساعدني في اكتساب معرفة إضافية عنه، لكن اللوحة عالية، يجلب لي أحد الكراسي من غرفته لأصعد فوق المقعد وأتمكن من القراءة:

"هو سيدي أحمد المطراوي الحسيني من نسل الجواد موسى الكاظم... هو خال السيد البدوي.. وُلد بالمغرب في مطلع القرن السادس الهجري ثم نزع منها الى مصر فطاب له بها المقام حتى وفاته...

هو الولي الشامل.. علا في مقامه حتى فاق أقرانه.. كان له مجلس علم يؤمه القاصي والداني وقد حُببت له العبادة حتى اتخذ لنفسه خلوة في هذا المكان الطاهر الذي سمي فيما بعد بالمطرية نسبة إليه".

لم أقدر على منع نفسي من الابتسام وأنا أقف فوق الكرسي بينما أقرأ كلمتي "خلوة" و"المكان الطاهر" تقترنان باسم الحي الذي نشأت فيه، لكني واصلت القراءة:

"توفي في أواخر القرن السادس الهجري ودفن في المكان الذي اتخذه خلوة حيث تتلألا على ضريحه الأنوار وتفيض منه صنوف الأسرار (هل لقناع سفاح فيلم ***Scream*** *علاقة بالأسرار؟) فهو في حياته قلعة يتحصن بها الحيران وفي مماته روضة يستظل بظلها اللهفان (هل لهذا السبب أستظل بالجامع الآن في ظل لهفتي لمعرفة الحقيقة وراء المطرية؟)".*

بينما أستمر في القراءة وبعد معرفتي أن المسجد وصل إلي شكله الحالي بعد آخر توسع أمر به الخديوي محمد توفيق، سمعت أحدهم يصرخ في خادم الجامع عن السبب وراء وقوف "الأفندي ده" على الكرسي، رغمًا عن وجود ثُريا ومشكاوات لا تقدر بثمن أمامه والخطر الذي قد تمثله أي زلة تؤدي لتحطيمها. نظرت نحو الخلف لأجد رجلاً

رفيعًا يتحدث بعصبية. عيناه جاحظتان ووجنتاه بارزتان، لديه صلعة لا متناهية. نظر نحوي شزرًا ثم أمرني بالنزول بكل عنجهية. عدت لأقف على أرض المسجد بتوتر بعد أن أخرجني صوته الأجش من السماء الصوفية التي كنت أحلق فيها أنا وأفكاري، طالبته بألا يصرخ في وجهي، فأنا صحفي ولم أفعل ما أفعله إلا بإذن من خادم المسجد، ثم لا يجب أن يتحدث معي هكذا فنحن في النهاية "في ليلة مباركة وداخل بيت ربنا". ظننت أن استخدام هذه اللغة، تلك اللهجة ومثل هذه المصطلحات قد تجعل ذلك العجوز العصبي يهدأ، لكنه ضربني بما يبدو أنه سلاحه المفضل: كلام خادم المسجد لا قيمة له فذلك الجاحظ هو مسؤول بوزارة الأوقاف والآمر الناهي هنا:

- إحنا في بيت ربنا وكلامي اللي هيمشي، أنت عارف العُلّيقة دي لو اتكسرت إيه اللي هيحصل؟ وبعدين صحفي؟ طب اطلع بره بقى.. لو مفيش معاك تصريح، إطلع بره بقى، وبعدين أنت بتتكلم كده ليه؟ ده أنا راجل قد أبوك؟ أبوك إيه؟ قد جدك!

ألف مبروك! لقد حصلت يا جاحظ العينين على جائزة أنك وُلدت قبلي بعدة أعوام. لم أفهم قط السبب الذي يجبر إنسانًا على احترام شخص فاقد للهيبة لمجرد أنه وُلد قبله بعدة أعوام، ناهيك عن أنه يقف في بيت الله، داخل جامع "سيدنا المطراوي" ويصف نفسه بالآمر الناهي وصاحب الكلمة الوحيدة هنا. أنا أفهم التعقيدات

والحجج والمتاهات الحكومية التي قد يفرضها عليك مسؤول ما بخصوص تصاريح ربما تكون حقيقية، وربما تكون وهمية فقط لتكديرك، لكن مسألة فرض الاحترام بناءً على عامل السن تبدو لي لغزًا أكثر تعقيدًا من الحقيقة وراء المطرية.

تطور الأمر بيننا لصراخ من هنا وهناك، كدنا نشتبك بالأيدي، كدت أطلق سبابًا، لكن قدسية المكان منعتني وبعد خروجي من المسجد لم أتوقف عن لعن الرجل. حسنًا ربما يكون متوترًا بعض الشيء بسبب قيمة الثُريا المفترضة واقتراب ليلة المولد، لكن ما ذنبي أنا في كل هذا؟ سآتي في يوم لاحق لأزور مقام "سيدنا المطراوي" وأشكو له، سأحدثه عما حدث لبقعته الطاهرة وخلوته المفضلة، قرأت في اللوحة أن "سيدنا المطراوي" له كرامات وفي زيارتي التالية سنرى إذا كان الأمر حقيقيًا أم لا.

* * *

تضرب الشمس الآن بقسوة، فقد انتصفت الظهيرة، لكن لا توجد مشكلة فأنا داخل هذه الرحلة أنفذ نصائح الطبيب الذي أمرني بالتعرض للشمس بصورة كافية لأعوض نقص فيتامين "د" الذي أعاني منه وسبب لي آلامًا مبرحة في عظامي، بالأخص في قفصي الصدري. صدري يرغب في البوح بالكثير من الأسرار، لكن هذا ليس الوقت المناسب للإعلان عنها. هناك أسرار أخرى يجب أن أكتشفها، لأفعل

هذا يجب ان اتظلل بشيء ما، ووجهتي التالية هي المكان المثالي لتنفيذ هذا الأمر.

تقول الأسطورة الأخرى أن السبب وراء تسمية المطرية يتعلق بالسيدة العذراء ورحلة العائلة المقدسة التي مرت فيها بمصر وكان للمطرية نصيبًا منها. يفترض أنها تظللت بشجرة لا تزال قائمة حتى يومنا هذا تقع بعد حوالي ٢٠٠ متر من مسجد "سيدنا المطراوي" الذي لبيت نداؤه وطردني الرجل العجوز منه.

كلمة "أم" باللاتينية تعني "Matter" ويفترض أن منها قد اشتق اسم المطرية. كان هذا هو ما قرأته وتذكرته بينما أقف أمام المدخل حيث يجلس ثلاثة أفراد أمن، أحدهم أمين شرطة بالزي الميري والبقية بملابس مدنية، أخبروني بأن أتوجه لثاني شباك لقطع التذكرة. لم أكن أظن أن الأمر يحتاج إلى تذكرة لكن لا بأس. توجهت إلى ثاني شباك، إلا أنه كان مغلقًا، طرقت عليه وانتظرت قليلاً. لم يجبني أحد. طرقت مجددًا لأجد النافذة تفتح ومن خلف عدد من الأعمدة الحديدية شاهدت مكتبًا صغيرًا للغاية يجلس حوله نحو خمسة موظفين، من ضمنهم واحدة ترتدي حجابًا وتتناول قرصًا من الطعمية في إفطار متأخر على ما يبدو. طلبت منها تذكرة. تعجبت وهي تخبرني بأن سعرها خمسة جنيهات وخمنت أن من يزورون هذا المكان قلة قليلة، وبالأخص أولئك الذين يأتون فرادى مثلي. حصلت على التذكرة الزرقاء وتوجهت إلى المدخل واظهرت بطاقتي لأمين الشرطة ومررت من بوابة الكشف عن المعادن لألج المكان. وجدت شخصين يجلسان على سور منخفض أسفله شيء

أشبه بحفرة. يبدو أنهما يعملان هنا أيضًا. تقدمت نحو الأمام ووجدت الشجرة التي ظننت أنني سأتظلل بها كما فعلت السيدة مريم، لكن المفاجأة أن أوراقها كانت قليلة أو ربما معدومة. كم أنا أحمق! لماذا تخيلت أنها ستكون مورقة؟ من المستحيل أن تظل شجرة بمثل هذا العمر قائمة بهيئتها العتيقة في ظل هذا التلوث وداخل أحد الأحياء الشعبية. الشجرة قصيرة للغاية، تكاد تبدو كأحد الأعمال الفنية السريالية غير المفهومة، خاصة مع تلك الأخرى الملتصقة بها من الخلف والتي يبدو من عمرها أنها قد استنبتت منها.

شاهدت على فروعها ما يبدو أنها بقايا لكتابات بحروف أجنبية، وخمنت أن ما قرأته بخصوص أن بعض الجنود أثناء الحملة الفرنسية قد حفروا أسماءهم على فروعها وجذعها كان صحيحًا. لا أدري إذا كانت مسألة استحمامهم بمياه البئر، الذي ارتوت منه السيدة مريم في رحلتها، تبركًا به كانت حقيقية أم لا.

اقترب مني أحد الأفراد الذين تركتهم عند البوابة. يبدو أنه كان متعجبًا هو الآخر من زيارتي ولكسر الجليد داخل هذا اليوم الصيفي شديد الحرارة ولإزالة أي توتر سألته إذا كان التصوير مسموحًا، فأجابني أنه طالما كان الأمر بكاميرا الهاتف فلا بأس، لكن التصوير الصحفي يحتاج إلى تصريحات. حقًا؟ لا أدري لماذا يجب تعقيد عمل الصحفيين بهذه الطريقة، فأنا لا أسعى لخدش رونق الحي أو إهانة الذات المطراوية، لكن لا توجد مشكلة، فأنا لم أخبره هذه المرة بقصة كاذبة حول صحفي يرغب في إعداد تقرير عن شجرة مريم، سأحب أن

أفعل هذا في يوم من الأيام، لكن ليس اليوم. ذهبت مع الرجل نحو غرفة أخرى تقع في الأمام، هي متحف مُصغر يضم صورًا للأماكن التي يفترض أن العائلة المقدسة مرت بها في مصر وخريطة كبيرة لأرض الوطن تظهر نفس الشيء. لفت الرجل نظري إلى قطعة حجرية معلقة على الحائط المواجه للمدخل وأخبرني بأن هذا هو مهد السيد المسيح، وبأن ذلك المكان الذي يجلس فوقه الموظفان هو البئر الذي ارتوت منه العذراء وغسلت فيه ملابس ابنها، لكنه الآن قد جف.

حكا لي أسطورة أخرى لم أكن أعرفها تقول إنه بجانب هذا البئر الذي غسلت فيه ملابس النبي عيسي خرج من الأرض نبات البلسم العطري ومن هنا أُطلق على هذه المنطقة سابقا اسم "أرض البلسم"، واشتق منه اسم شارع البلسم المجاور، لكن أغرب ما أخبرني به أن اسم المطرية جاء بعد أن ارتوت العذراء من البئر وقالت عنه "ماء طري". لم يزعجني استخدام صفة "طري" مع الماء بكل ما فيها من ركاكة، بقدر ما تعجبت من إمكانية تصديق أن تنطق السيدة مريم بالعربية دون أن تكون لغتها وفي زمن لم يكن العرب دخلوا فيه إلى مصر.

تذكرت لدى خروجي من المكان -الذي يحيط به سور زُين بآية قرآنية هي "وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ" وبينما يمر توك توك مسرعًا من جانبي- قصة أخرى قرأتها في الليلة السابقة عن المكان وعن كيف طلبت العذراء من سيدة في إحدى البيوت قطعة خبز لتسد جوعها بعدما اشتمت رائحة الخبز، إلا أن تلك المرأة الخبيثة أخبرتها بأن العجين لم يختمر،

فدعت مريم على المكان بألا يكتمل له خبز. يبدو أن الأمر لم يحدث حرفيًا، فهناك أفران كثيرة بالقرب من المكان، لكن دعاء العذراء ربما كان مجازيًا، فالمطرية لن تعود أبدًا إلى سابق عهدها، إلى ما كانت عليه، أو إلى ما يقولون أنها كانت عليه في عصر الفراعنة. فلا أظن أن ستيفن هوكينج الجديد قد يتخرج من كلية هندسة المطرية، كما درس أفلاطون في جامعة "أون" القديمة التي كانت تقع سابقا في هذا الحي، قبل أن يأتي "سيدنا المطراوي"، قبل أن تمر "ستنا مريم".

ما يظهر فوق الأرض من الآثار الفرعونية التي تزخر بها المنطقة هي مسلة سنوسرت الأول التي لم أفكر في زيارتها قط طوال الأعوام الثلاثين التي قضيتها بين شوارع هذا الحي، لكن لا يوجد شيء قد يمنعني من المرور عليها الآن. الجو بات حارًا للغاية، لا أقوى على المشي حتى ميدان المسلة، لذا أنسب وسيلة هي استقلال توكتوك للتوجه سريعًا إلى هناك. هكذا سأهرب من الزحام والمنطقة التي يُمنع فيها مرور السيارات عند قسم المطرية. ربما يُعد سائقو التكاتك في المطرية نسخ جديدة ومصغرة من أفلاطون. هم لا يتبعون المدرسة الأفلاطونية بكل تأكيد، لكن لكل منهم حكمته الفلسفية المتفردة التي يضعها على مركبته الشيطانية الصغيرة، تلك التي تسير على وقع موسيقى ما يعرف باسم المهرجانات. لدي عادة غريبة عند ركوب التكاتك -كلما استدعت الحاجة- حيث يقع اختياري دائمًا على السائق صاحب اكثر عبارة مُلفتة مطبوعة على "مكنته" -كما يقولون- لهذا توقفت عن السير لاختيار التوكتوك المنشود:

- "ممنوع ركوب الحوامل".. ليست عبارة جذابة كما أنني أجد في هذا نوع من الظلم المجتمعي، لست نسويًا، لكن في نفس الوقت أنا رجل يميل للمساواة بين الجنسين.

- "البخت مال من كتر الصحاب الشمال".. عبارة تقليدية، مملة ومكررة لا تعكس شخصية متفردة أو تجربة استثنائية قد يحظى بها الراكب مع السائق داخل "المكنة".

- "صاحبي هو القرش.. هو اللي مدلع الكرش".. يبدو كشخص انتهازي وقد نختلف على الأجرة، كما أن القافية ليست جذابة.

- "دراكولا ومش هقول تاني"... تجول مصاص دماء أسفل هذه الشمس الساطعة ووسط هذا القيظ أمر جدير بالاحترام، لكن أنا أرغب في المزيد يا رجل، لماذا لم تكتب كلمات أخرى لأتعرف عليك؟ لماذا كل هذا الغموض؟

- "عفريتة وراكبها جن".

رائع! هذا هو الخيار المطلوب، لم يلجأ لقافية مبتذلة. هو يعتز بمركبته وأيضًا بنفسه ومهاراته كسائق. عبارة قصيرة وموجزة تعكس شخصيته. ربما تحمل مغزى جنسيًا بعض الشيء. قد يكون الأمر مخيفًا إذا كنت فتاة، لكن لحسن الحظ أنا الفارس المشاء "دون محمد ديل مطرية"، أنا دون كيشوت العصر الحديث الباحث عن الحقيقة. لا، بل أنا مجرد رجل ثلاثيني حليق الرأس كان يبحث عن السبب وراء تسمية

المطرية، لكن الأمر انتهى به يزور معالمها الإسلامية والقبطية ليشق طريقه الآن نحو ماضيها الفرعوني.

* * *

كان اختيار "الجني" الذي يركب "العفريتة" موفقًا للغاية، فقد تمكن في ظرف ثلاث دقائق من الوصول إلى ميدان المسلة، بعد السير في شوارع جانبية تقع خلف قسم المطرية تفادى فيها بمهارة يحسد عليها المارة والأطفال وهم يلعبون وبعض باعة الخضار الجائلين، كما أنه ارتضى الحصول على خمسة جنيهات فقط. كنت أفكر في حسابه بثلاثة جنيهات، لكن خشيت الشجار مجددًا أو الأعمال السفلية التي قد يضربني بها هذا الجني، لذا فضلت إنهاء علاقة عملنا السريعة على خير، وورقة الخمس جنيهات مناسبة لذلك، فعلى أحد وجهيها صورة فرعونية تجسد تمثال "خير" نهر النيل.

أقف الآن في ميدان المسلة حيث ينتصب مسجد ومستشفى النور المحمدي. أعبر للناحية الأخرى وأرى أمامي من خلف السياج تلال من القمامة ومخلفات البناء أو ما يعرف بـ"أرض المزرعة"، تلك البقعة التي طالما شاهدت فيها في صغري تماثيل وتوابيت فرعونية صغيرة انتشلوها من باطن الأرض وتركوها لوحدها في العراء. لا أعرف ما هو سبب الضجة التي أثيرت مؤخرًا حول اكتشاف التمثالين الضخمين في المطرية، فالكبير قبل الصغير هنا يعرف أن حينا العزيز يستقر فوق بحر من الآثار، بل إن أسرع سبيل للثراء هنا هو أن تكون تاجرًا للمخدرات

او السلاح او الآثار، لكن كل هذا ليس مهما فيجب أن أزور مسلة سنوسرت الأول الواقعة في أرض المطرية "الطاهرة" كما جاء في وصفها طبقا للوحة جامع "سيدنا المطراوي". تلك الأرض التي قال عنها بعض المؤرخين إنها كانت تضم واحدة من أهم الجامعات على مستوى العالم في زمنها.

أتقدم نحو مدخل منطقة عرب الحصن، وأجد على يساري المدخل إلى المسلة محاطًا بسور، ترتفع فوقه لافتة ضخمة تفيد بتبعية المكان لوزارة الآثار. تفصلني بوابتان عن المسلة، بكل تأكيد لن يظهر سنوسرت أمامي ليطالبني باحترامه لأنه أكبر مني بآلاف الأعوام، وحتى لو فعل هذا لن أشعر بالاستياء، فهو رجل يستحق الاحترام. أعبر البوابة الأولى دون معارضة من أحد. هناك بناية قصيرة على اليمين امامها شجرة صغيرة يجلس أسفلها رجل أسمر ذو لحية رمادية. يرتدي طاقية شبابية أرسل جناحها نحو الخلف. أتقدم نحوه وأسأله عن سعر التذكرة، لكنه يجيبني أن الزيارة ليست متاحة، فهذا الموقع لم يُفتتح بعد، أسأله عن السبب فيجيبني بكل بساطة:

- الله أعلم يا بيه!

حاولت كثيرًا اليوم الدخول في علم الغيب ولم أتمكن، لكن حصولي على لقب البكوية أثلج صدري في هذه الظهيرة الحارة وحرك داخلي مشاعر شيطانية لعرض مبلغ مالي على الرجل ليسمح لي

بالدخول، ليس بمفردي لكن معه لأطالع المسلة عن قرب، لكنه رفض بكل بساطة مضيفًا:

ـ مش مسألة فلوس يا بيه بس فيها جزا والله.

لقد أقسم بلفظ الجلالة ولا يزال مصرًا بخصوص مسألة حصولي على لقب البكوية. يجب أن أتركه يحتمي بظل الشجرة وأكتفي بالنظر للمسلة من بعيد والتجربة التي خضتها اليوم. لم أتمكن من حسم سؤالي حول اسم المطرية، لكن خرجت بالكثير من النظريات وزرت أماكن لم تطأها قدمي، رغمًا عن وجودها أمامي طول الوقت. أصررت على منح الرجل عشرة جنيهات وخرجت من البوابة مستعدًا للعودة سريعًا نحو المنزل للحصول على قسط من الراحة قبل ذهابي للعمل، لكن بعد خطوتين من البوابة استوقفتني مجموعة مكونة من ثلاث طالبات يبدو أنهن في الصف الأول الثانوي. سألتني الأولى عن إذا كن يستطعن الدخول فقصصت عليهن ما قاله لي الرجل، ولا أدري لماذا أخبرتهن أنه إذا كن يرغبن في تجربة جديدة فعليهن الذهاب لزيارة مسجد المطراوي وشجرة مريم، فقالت الثانية:

ـ شكلك كنت بتعمل خمسة سياحة.

ابتسمت وأنا أومئ برأسي، قبل أن أسمع الثالثة وهي تتلجلج في نطق تلك الجملة بالإنجليزية:

- You was matarising.

تجمدت في مكاني. لم أعبأ كثيرًا بتصريف الفعل الخاطئ، لكن كل ما شغل تفكيري كانت ألمعية وخفة دم الفتاة باشتقاق لفظ إنجليزي ليس له وجود من اسم الحي، فما هو المصطلح الذي قد يطلق بالإنجليزية على شخص يتجول بالمطرية منذ الصباح ويزور معالمها التي لا يعرفها الجميع؟ لقد صنعت وحدها تلك الإجابة بكل سلاسة وعفوية. انفجرت في الضحك بعدها، وهنّ أيضًا، خاصة حينما قالت لها الثانية:

ـ هتسقطي في الإنجليزي برضه يا خايبة.

لا أظن أنها خائبة، بل أعتقد أن سنوسرت الأول وأفلاطون كانا ليفتخرا بهذا القدر من الذكاء الفطري. عبرت الشارع مجددًا وعدت لميدان المسلة وأوقفت أول سيارة أجرة صادفتني لأعود نحو المنزل. السائق رجل ذو لحية بيضاء مهيبة، لكنه عصبي للغاية. لا يتوقف عن انتقاد هذا وذاك أثناء القيادة. أظنه كان محقًا حينما عنف الشاب الذي يعبر الشارع بكل لا مبالاة وكاد يقع تحت إطارات سيارته، لكن لا أدرك كيف بدأ بعدها الحديث عن عذاب القبر والثعبان الأقرع. ظل يتحدث عن الأمر حتى بعد وصولنا إلى شارع عين شمس من طرفه الآخر البعيد عن ميداني المطرية والحلمية، بل واستمر في الأمر حتى وصلنا عند "التوحيد والنور". لاحظت أن الزحام شديد وكل ما يفصلني عن المنزل خمس دقائق فقط من السير. دفعت له قراءة العداد وخرجت من السيارة لأعبر تقاطع شارع عين شمس مع شارع متحف المطرية، ذلك الأخير موازي للشارع الذي أسكن به. لم أعرف قط لماذا

دعى متحف المطرية، لم أر قط هذا المتحف، لا اعرف حتى إذا كان
ائمًا حتى يومنا هذا، ما يوجد الآن في هذا الشارع هو مركز بحوث
لصحراء، لا اعرف لماذا يقع مركز بحوث الصحراء ـالمليء بالخضرةـ
داخل منطقة سكنية شعبية، لكن كل ما أعرفه إنه في يوم من الأيام
سيبحث أحدهم وبصورة أفضل مني عن الحقيقة وراء المطرية.

علاء بوكس وإشكالية لا ثلستينا

أقف الآن في قلب المغارة. هذه هي زيارتي الأولى لهذا المكان. لم أضطر لقطع أميال طويلة داخل غابة موحشة -كأحد مغامري العصر القديم أو حتى الحديث- لأبصرها تتراءى لي من بعيد تحت سفح أحد الجبال الغامضة، فقد جئت إلى هنا بغتة ونتيجة لسلسلة من الأحداث التي لم أكن شريكًا فيها. هي مغارة علوية، لكن الوصول إليها لا يتطلب مجهودًا كبيرًا، بل ثقة شخص واحد فقط. هو يقف الآن بجانبي بينما يدخن سيجارته الطويلة. هو من يصنع القواعد في هذا المكان، يمكنه فعل ما يحلو له. يأمرني بالتوجه معه نحو الخارج لمشاهدة المنظر من علو. أطيعه، فلا سبيل لرد الجميل سوى الطاعة، فقد اصطفاني -أنا وحدي- من ضمن مريديه ومحبي عالمه الصغار للصعود للمغارة والابتعاد عن دائرة الخطر. أسير خلفه في خنوع، أعلم أنني لن أجد أشجارًا غاية في الخضرة، بحيرة هادئة تتلألأ من بعيد، أو نهرًا يسري في سكون، كل ما أشعر به هو القلق بالرغم من بعدي عن الوحوش الموجودة في الأسفل. ترعبني أصوات زئيرهم وزمجرتهم، وأكثر منها

أصوات صراخ النساء. أطل برأسي نحو الخارج ثم أخطو. أرى رؤوسًا تطل هي الأخرى من خلف ستائر البلكونات، أنصاف أجساد تقف بلا خجل، عيون تراقب بتلذذ ما يحدث أو ما سيحدث، أشباح لبشر تقف امام بيوت قديمة، عبارات تلقيح من هذا وذاك، لعنات، استغفار وتكبيرات. هل هناك ما يدعو للتكبير في مثل هذا الموقف؟ لا أظن، لكن عين شمس اعتادت على مخالفة المنطق، بل ربما أرست أسس مخالفته منذ بداية الخلق، تكفي فقط تسميتها، فالقرص الأصفر السماوي لا يرى لكن بكل بساطة باتت له عين، لذا لا أجد مانعًا من أن يصبح له لسان يحكي وقلم يكتب قصة ما حدث.

المغارة هي شقة تقع في الدور الثالث والأخير بمنزل "عم زينهم". تقدم هي الأخرى نشاطًا ترفيهيًا، لكنه يختلف عن مخزن الـ"بلاي ستيشن" الذي صنع علاقتي به هو و"عنتر عضمة". عالمها لا يدخل في قائمة اهتماماتي. لم تجذبني المخدرات قط، سواء في صورتها الكيميائية -وأعني بهذا أقراص الترامادول- أو الطبيعية، وأقصد طبعًا الحشيش والبانجو. حسنًا لا أرغب في الكذب، شعرت بانجذاب غريب نحو صورتها الكيميائية بعد سنوات كثيرة عقب مشاهدة مسلسل "بريكينج باد"، بل أنني بحثت عن طريقة قد تتيح لي تعاطي الـ"ميثامفيتامين"، لكن لم أجد إليه سبيلاً، أما تدخينها سواء في صورتها النباتية البنية والخضراء، فلم يترك داخلي رغبة في محاولة صنع علاقة دائمة ومستدامة مع تلك المنتجات العضوية التي كانت ركيزة أساسية -أو هكذا أعتقد- في مداخيل "المؤسسة الزينهُمية".

لم أصعد للمغارة -الملتقى المفضل لمعارف وأصدقاء "عم زينهم" المقربين لشراء وتعاطي المخدرات- بقرار شخصي بل نتيجة لظروف قهرية، فقد جاءت التحذيرات فجأة:

- عربية أتاري داخلة الشارع!

لم أكن حتى هذا الحين أعرف معنى "عربية الأتاري"، لكن أدركت لاحقًا أن هذا هو المُسمى الذي يطلقه البعض على سيارة الشرطة، لماذا لم يأت التحذير في صورة أكثر وضوحًا باختيار كلمة أكثر شيوعًا مثل الـ"بوكس"؟ كل هذه أمور ثانوية في تلك اللحظة، في وقت حدوث القصة، ولا أدري لماذا أطرحها في صورة تلك الأسئلة الغبية بينما أحاول بصعوبة لململة ذكريات ذلك اليوم من قرن آمون، وهو ليس اسم فرعوني قديم لعين شمس، بل الجزء المسؤول عن الذاكرة في الدماغ البشري.

كنت حضرت قبلها أكثر من "كبسة"، لكن في أندية أخرى -إن صح التعبير- للعب الـ"بلاي ستيشن"، فالشرطة يجب أن تقوم بعملها التربوي مع الطلاب الملاعين الذين يهربون من المدارس، جمعهم من هذه الجحور المُفسدة، وإبلاغ عائلاتهم كي يأتوا لاستلامهم بعد تمضية وقت "لطيف" في الحجز. قد يتعرض أصحاب هذه الأماكن لبعض التعنيف اللفظي، ربما لكسر مقعد أو اثنين أو تحذيرات بعدم فتح ابوابهم منذ الصباح الباكر، لكن لا يصل الأمر لما هو أبعد من هذا، خاصة إذا كانت هناك ترضية مالية ليصبح "احلى صباح" على الجميع.

أحفظ المراسم البروتوكولية حتى الآن، يأتي التحذير وهناك حل من اثنين: الركض بسرعة نحو الخارج، الفرار، و"الحساب يجمع" لاحقًا مع صاحب المحل، أو أن يقوم الأخير بفصل الكهرباء وإغلاق الباب الصاج من الخارج على كل من في الداخل حتى يزول الخطر ويستأنف الجميع مبارياتهم، لكن هذه المرة لم يتركني "عم زينهم" أرحل، فكنا على موعد مع نزال ورهان جديد بعد ساعة، لهذا بعد أن انطلق الجميع مولين الأدبار، أغلق باب المخزن وأمرني بالصعود معه نحو المغارة، ذلك المكان الغامض الذي طالما سمعت عنه الكثير من "عضمة" و"علاء بوكس".

* * *

لم أر أحدًا في مثل مهارته، بل أعتقد أنه لو كانت الظروف الملائمة قد هُيئت له لنافس ميسي ورونالدو على لقب أفضل لاعب في العالم، لكن الحاج سيد لا يؤمن بهذه التفاهات. لا يعلم علاء لماذا ذهب به في الأساس لاختبارات نادي الترسانة وهو لا يزال طفلاً، إذا كان يرفض الفكرة من بابها. أخبرني أنه لن يسامحه أبدًا، خاصة وأنه بعد نجاحه في اجتيازها وإذهال الكل، أصدر الأب فرمانه: علاء لن يذهب إلى أي مكان.

لم يبرر الحاج سيد الأمر قط لعلاء، وإن كان الظن الأقرب لديه هو أن والده قد تكاسل عن فكرة الاضطرار لاصطحابه بصورة دورية من عين شمس إلى نادي الترسانة. هي مسافة بعيدة والرجل لم يكن

مستعدًا لقطعها، كما أن الدراسة لها الأولوية، فـ"الولد ذكي" وينتظره مستقبل باهر بعيدًا عن اللعب وكل ما هو مستدير.

ـ باهر قوي!

قالها علاء وهو يقهقه أمامي في ختام رواية قصته مع الكرة بينما ينفث دخان سيجارته المفضلة "كليوباترا بوكس". هي السبب الرئيسي وراء اللقب الذي عرفناه به جميعًا. العلاقة بين علاء وذلك النوع من التبغ أساسها الحب، فلا يمكن أن تراه دون تلك السيجارة، فهو يعانقها بشفتيه طوال الوقت، أنفاسه هي أنفاسها، يشعل مشاعرها طول الوقت فتطفو سحابة دخانها فوق رأسه، كأن كل قبلة يطبعها على فلاترها توصلهما معًا إلى هزة الجماع. كانا لا يفترقان بتاتًا، يقترن كل منهما بالآخر، في الشارع، في مخزن زينهم، بل وحتى أثناء لعب الكرة. لم أر من هو أمهر منه في لعب الكرة. أدرك جيدًا ما أقوله، فقد شاهدته بصورة أسبوعية لمدة عام تقريبًا يذل كل خصومه على أرضية ملعب (عمر بن الخطاب) المتربة؛ ففي الفترة المسائية التي تظل فيها المؤسسة التعليمية مفتوحة من أجل حصص مجموعات التقوية، يحصل عادل حارس المدرسة على دخل إضافي عبر تأجير الملعب، لكن مثل هذه المباريات لم تكن تُلعب من أجل المتعة فقط، بل لكسب المال أيضًا: يدفع لاعبو كل فريق مبلغًا نقديًا ويحصل الطرف الفائز على كل شيء، ويعود الخاسر يجر أذيال الخيبة. هو نوع أخر من المراهنات التي كانت تُمارس خارج حدود منظمة زينهم للعلوم الترفيهية، لكن الكرة كانت تلعب فيه على أرض الواقع وليس عبر أذرع التحكم.

طريقة لعب "علاء بوكس" للكرة تخالف الواقع وكل ما هو متعارف عليه، فهو يلعب بلا حذاء بينما يدخن، لكنه كان ساحرًا. هو شيطان يتلاعب بالكرة بين قدميه بكل سهولة كأنها امتداد لجسده. كان الأمر غريبًا في البداية بالنسبة لي، خاصة مع رؤية قدميه المفلطحتين كعظاءة عملاقة، أظافره الطويلة التي بدت كمخالب ديناصور، لكن مشاهدته بصورة دورية وهو يراوغ هذا وذاك بكل سهولة، وهو يقفز في الهواء -ممسكًا بسيجارته- ليلعب مقصية مزدوجة ثم ينهض بعدها لنفض التراب من ملابسه قبل أن ينفث الدخان الذي اختزنه في رئتيه، جعلت كل هذا التعجب والاستغراب يتبدد، حتى بخصوص نظريته عن أن التدخين يعمل على "توسيع" قدرة رئتيه على اختزان الهواء، وبالتالي لا تنقطع أنفاسه سريعًا أثناء المباريات، لكن ما لم أفهمه هو مسألة إصراره على إهدار أغلب مكاسبه على المخدرات. "علاء بوكس" يكبرني بأربعة أو خمسة أعوام تقريبًا وبعامين دراسيين فقط، ومخزن "عم زينهم" كان هو المكان الذي تعرف فيه كل منا على الآخر. هناك أيضًا أخبرني للمرة الأولى عن المغارة، بل أنه دعاني لتجربة الأمر معه في أكثر من مناسبة، لكن في كل مرة كنت أهرب باستذكاء مفضوح. كان لدي هاجس بأن "عم زينهم" سيعترض على الأمر، فالمغارة لها هيبتها وليست مكانًا مناسبًا لشخص في مثل مواصفاتي.

ربما لهذا السبب لم تتوطد علاقتنا. ربما أيضًا لأسباب أخرى، ربما تعلق الأمر بفارق السن، عامل الجرأة وكوني لا زلت مستجدًا يحبو داخل هذه الحياة العجيبة. كنت أضع حينها أطر وأسس علاقتي

بالكون، لكن "بوكس" على النقيض كان قد حدد بالفعل أضلاع مثلث حياته: الكرة والمزاج والنساء.

* * *

"أبلة فاتن" لم تكن مُدرسة في (عمر بن الخطاب)، لكنها كانت أستاذة في مدرستها الخاصة لمساعدة الشباب على تعلم أشياء لها علاقة وثيقة بالفن وعلوم الأحياء وتشريح جسم الإنسان. لم يعرف أحد إذا كان هذا هو اسمها الحقيقي أم لا، ونفس الأمر ينطبق على ابنتيها سماح وسلوى. كن جيمعًا يسكن في بيت قديم من دور واحد يقع قرب نهاية الشارع المسدود الذي يقع به مخزن ومغارة "عم زينهم". كان منزلهن يقدم نشاطًا ترفيهيًا هو الآخر، لكن من ذلك النوع الذي قد يُحاسب القانون عليه بشدة. مصر في حالتهن "بلد قانون ونُص"، لذا فإن سقوطهن كان محتومًا. لم يطل بقائهن في ذلك البيت الذي قيل إن "أبلة فاتن" ورثته من قريب بعيد -وقيل في رواية أخرى إن عشيق سابق كتبه باسمها- أكثر من عامين، لكن شهرتهن كانت ذائعة الصيت في المدرسة، خاصة بين طلاب الصف الثالث الثانوي.

تفصلني أربعة أو خمسة أعوام في السن عن علاء، لهذا كنت على اطّلاع تام عبره على كل الحقائق والأساطير التي نُسجت حول هذا الثلاثي، خاصة في ظل شغل نون النسوة لحيز كبير في عالم "بوكس". كن على دراية بالأحوال الاقتصادية لأهل المنطقة وبظروف الشباب، بل اظن أن "ابلة فاتن" كانت لها نظرة تسويقية ثاقبة فأعلى أسعار

خدماتها كان يصل الى مئة وخمسين جنيهًا فقط، أما أرخصها فلم يتخط خمسة وعشرون جنيهًا. لم تعتمد نظام التقسيط بكل تأكيد، لكنها كانت تقدم حزمة برامج مختلفة تتنوع بين الرقص، التعري، التقبيل والمداعبة من فوق الملابس، والجنس اليدوي أو الفموي. لم يكن هناك أي خدمات إضافية. فالفئة المستهدفة لا تقدر على تحمل تكلفة مرتفعة لاستغلال كافة المنافع، كما أن دخول أي عميل لهن في علاقة كاملة قد يؤدي لحدوث مشاكل كبرى حال اكتشفت عائلته الأمر. ليس هذا فحسب، فعلاء شرح لي أيضا أن "أبلة فاتن" وابنتيها يشعرن بالاشمئزاز من الإتيان من الخلف ويعتقدن أن أي رجل أو شاب يفكر به "ناقص"، فهذه فعلة "شنعاء" ومُحرمة، كما أن فاتن تفضل أن تظل سماح وسلوى "بنات بنوت" لعل وعسى يأتي زمن ينتشل فيه رجل إحداهن من هذه الحياة، فهي في النهاية أم تبحث عن مصلحة بناتها.

كانت سماح هي المفضلة لدى "بوكس" والحق يقال أنه لا يمكن معارضته في هذا، فهي نسخة فائقة الجودة ـوفقًا للمقاييس الشعبيةـ من روبي أهم نجمات تلك الفترة، فيكفي فقط طريقة تكحيل عينيها، كما أن "لسانها بينقط سكر" في كلامها مع الزبائن على عكس سلوى ـوالعهدة على علاءـ الذي أكد لي أنه بخلاف "السكر والكلام" فلسانها "أسطورة" فيما يتعلق بأغلى عناصر قائمة الخدمات الترفيهية في بيت "أبلة فاتن". لا يوجد سبب لتكذيب "بوكس"، فأسوأ مبارياته ـوحينما أقول أسوأ لا أعني أنه كان يلعب بصورة متواضعة، بل بطريقة لا تعكس كل ما لديه من مهاراتـ كانت تأتي دائمًا بعد إتمام واحدة من معاملاته مع سماح.

كما رفضت دعوات "بوكس" لتجربة أجواء المغارة، استبعدت تمامًا فكرة خوض مغامرة مع سماح أو سلوى وبكل تأكيد مع المرأة الدب "أبلة فاتن"، ليس بسبب وازع ديني، بقدر تعلق المسألة بالخوف من أن يكتشف أحدهم الأمر، فحينها كانت حياتي تشبه بالفعل السير على نصل سكين حاد. حالفني التوفيق في الأمر، لم تسل دمائي. لم اتعرض للأذى أو لعلقة ساخنة من الحاج صلاح. لم ينكشف المستور. كان من الصعب أن أخاطر بكل هذا والغطاء التأميني الذي ظل صامدًا دون سقوط من أجل "أبلة فاتن"، أو سماح و سلوى، كما أن سن "بوكس" ومؤهلاته البدنية تمنحانه قدرًا من الهيبة أو الجاذبية عندهن، أما أنا فهيئتي المتكورة الصغيرة ونظارتي وعينيّ الصينيتين كلها عوامل دفعتني للاقتناع بأنني لن أروق لإحداهن، حتى مقابل المال. كنت محقًا في مسألة الرفض. تأكدت من قراري هذا وأنا أقف هذا اليوم في شرفة المغارة.

* * *

أقف الآن في المغارة. هذه هي زيارتي الأولى لهذا المكان. الصالة لا تزال بلا طلاء. بعض زجاجات البيرة مكومة في أحد الأركان. تتوسط الصالة حصيرة تتراص على أطرافها وسائد تشكل أضلاع مربع يضم طبلية خشبية وضعت فوقها جوزة، حزمة من أوراق لف السجائر وعدد من أشرطة الترامادول. ينتصب جوال من الفحم أسفل النافذة المجاورة للبلكونة، تلتف حوله خمس جوزات أخرى كأن تلك الأدوات

ذات الخصوصية الشديدة لتدخين الحشيش تقف في مهمة خاصة لمراقبة هذا المخزون من الوقود الحفري. يغلق "عم زينهم" الباب وبعدها بدقائق نسمع أصوات الصراخ، الهرج والمرج. ندرك أنها لم تكن "كبسة" على محلات الـ"بلاي ستيشن"، و أرى حينها مدى حماقتي، فبدلاً من الفرار مع من فر أطعته وصعدت معه إلى المغارة، فماذا لو كان الأمر يتعلق بها في الأساس؟ سينتهي مستقبلي بكل تأكيد. لا أعلم حقًا ما كان يفكر فيه زينهم هو الآخر حينما قرر صعودنا نحن الاثنين إلى هنا، لكنه يفتح الشرفة ويقترح بصيغة آمرة أن ندخل لنرى ما يحدث. أطل برأسي نحو الخارج ثم أخطو. أرى رؤوسًا تطل من خلف ستائر البلكونات، أنصاف أجساد تقف بلا خجل. هناك عيون تراقب بتلذذ ما يحدث أو ما سيحدث، أشباح لبشر تقف أمام بيوت قديمة، عبارات تلقيح من هذا وذاك، لعنات ،استغفار وتكبيرات. هل هناك ما يدعو للتكبير في مثل هذا الموقف؟ أظن أنني أجبت عن هذا السؤال مسبقًا، لكن ما الذي يحدث حقًا. أميز صراخ ثلاث نساء يأتي من نهاية الشارع: "أبلة فاتن" وسماح وسلوى. لقد حدث ما حدث ووقعن ويجري اقتيادهن جميعا نحو "عربية الأتاري"، "البوكس"، أو سيارة الشرطة، لكن هذه ليست المشكلة، بل ما أراه من بعيد: هناك شاب طويل القامة يحاول التملص من قبضة أميني شرطة، لكن يأتي ثالث ليسقطه أرضًا. لا يتوقفون عن ركله بكل سادية. لا أدري لماذا كل هذه الوحشية، ففي النهاية هي مجرد قضية "آداب". ربما لن يتمكنوا من إثبات شيء حينما تظهر عذرية سماح وسلوى. لا أجد مبررًا لكل هذه الوحشية حتى لو

كانت التهمة هي مقاومة السلطات، لا أجد سببًا لاستخدامها سوى في حالة إلقاء القبض على متهم في قضية إبادة جماعية، أما هذا الشاب فما الذي أباده؟ ملايين من حيواناته المنوية مثلاً؟ أين المشكلة؟ أعرف أين المشكلة الآن وهم يقتربون بينما يجرّون جسده على الأرض المتربة، أعرف هاتين القدمين المفلطحتين جيدًا، لا يمكن أن أخطئهما، أتأكد من المسألة حينما ألحظ علبة سجائر ال"كليوباترا بوكس" وهي تسقط من بنطاله، أتيقن منه حينما يتوقفان عن جره لأرى وجه علاء. يرفعه أحد الأمناء من قميصه ليقف على قدميه، كديناصور لاحم يستفيق عقب سقوط جرم سماوي بالقرب منه، قبل أن يدفعه إلى داخل السيارة. أعود إلى داخل المغارة بينما أطأطئ رأسي، يتبعني عم زينهم. أتجرأ على إخباره بضرورة رحيلي لشعوري بإعياء مفاجئ، عليه أن يبلغ "عضمة" اعتذاري، فلن أقدر اليوم على اللعب.

* * *

لا يصلح وصف السرطان بالمرض أو الداء. أعتقد أن استخدام هذه الكلمة أو تلك لا يعكس ما يحدث حقًا. بالمثل لا أظن أن تشبيهات مثل الوحش القاتل أو المرض الخبيث تعبر عن مدى قسوته وخسته. لقد انتزعه من حياتي دون مقدمات في ظرف شهور قليلة. أبغض السرطان وأمقت الفترة التي سحب فيها الحياة والروح، ليس فقط من الحاج صلاح، بل من كل أفراد العائلة. كنا جميعا نقف ونتمايل على حافة الهاوية بعدما أعلن عن وجوده في المعدة، قبل أن ينتشر سريعًا في

الحوض والعمود الفقري. تحولت بسببه حينها إلى نسخة هزيلة من الإصدار شبه المثالي من محمد الفولي. لم يتساقط شعري، أو أصرخ من الألم، لم أصبح جليسًا للفراش حتى تقرح جسدي، لم تنتابني حتى تلك الهلاوس التي هاجمت أبي في أخر لياليه بهذا العالم، لكن فقدت الرغبة -تلك الركيزة الأساسية التي اعتمدت عليها منذ بدء عملية تحولي في الصف الأول الثانوي- في استكشاف كل شيء، ومع ضياع الرغبة يتفتت الطموح إلى مسحوق ترابي تُطيح به أول لفحة هواء، يتعاظم الكسل وتتعملق البلادة، لهذا كان ثالث أعوامي الجامعية بقسم اللغة الإسبانية في كلية الآداب أقلها إبداعًا، حركةً ونشاطًا. لنفس السبب لم أقرأ مسرحية "لا ثلستينا". فكيف سأتمكن من الوفاء بكل ما يطلبه أساتذتي في الجامعة من أبحاث وخلافه وأنا أتنقل بصورة شبه يومية في مسار عين شمس -جامعة القاهرة- مركز أورام السلام لأحط الرحال في النهاية بمنزل العائلة الجديد في شارع علي باشا؟ لم أقرأ مسرحية "لا ثلستينا" حتى الآن، لكن أعرف قصتها جيدًا والفضل في هذا يعود إلى "ركن الكسلان".

موقع "ركن الكسلان" أو "Rincón del vago" الإلكتروني يعتبر بمثابة كنز للطلاب البلداء الملمين بالإسبانية أيًا كانت جنسيتهم، كذلك بالنسبة للطلبة الذين أصيب آباؤهم فجأة بالسرطان ويرغبون في المحافظة على معدل الدرجات المرتفع الذي حققوه في أول عامين، المحافظة عليه فقط من أجل إسعاد أولئك الذين اقترب رحيلهم أو إدخال نوع من البهجة على من سيبقون بعدهم. يتشارك مستخدمو

موقع (ركن الكسلان) عن طيب خاطر الأبحاث والملخصات والتحليلات الخاصة بأغلب الأعمال الأدبية الإسبانية، وهكذا إذا كان أحدهم في أزمة يمكنه الإطلاع عليها سريعًا وصناعة خلطة متوازنة بين هذا البحث وذاك المشروع لإخراج الأطروحة التي يجب أن يُقدمها لأستاذه قبل الامتحانات. كان هذا هو ما فعلته مع مسرحية "لا ثلستينا" المنتمية للعصور الوسطى. سأحب أن أقرأها كاملة في يوم من الأيام، فحبكتها بها شيء من رائحة ما حدث مع "علاء بوكس" و"أبلة فاتن".

يقابل كاليستو في بستان منزله مليبيا بالصدفة عندما تدخل للبحث عن صقرها. يعرض عليها مبادلته الحب لكنها ترفض. تتعقد الأمور فقد سقط في غرامها بعنف وبناء على نصيحة خادمه سمبرونيو يلجأ إلى عاهرة سابقة تعمل كقوادة محترفة تُدعى "لا ثلستينا". هي امرأة ماكرة تتمكن من دخول البيوت عبر انتحال شخصية بائعة وبهذه الطريقة يمكنها تحديد مواعيد العشاق، لكنها مثل "أبلة فاتن" تدير ماخورها الخاص وتعمل به التلميذتان النجيبتان سلوى وسماح، أقصد أريوسا والبثيا.

يحاول خادم كاليستو الآخر، بارمينو إثناء سيده عن هذا المسار لكن الأخير لا يلقي له بالاً فكل ما يهمه هو إشباع رغباته، فلا يجد بدًا من الانضمام لسمبرونيو ولا ثلستينا في استغلال شغف السيد بمليبيا وتقاسم المكافآت المرتقبة، خاصةً وأن القوادة تعده بعلاقة كاملة المنافع مع إحدى تلميذتيها. أظن أن "بوكس" كان يحلم بشيء مشابه مع سماح، وليس تلك الخدمات الانتقائية التي فرضتها فاتن.

تنجح لا ثلستينا عبر مهارتها الفائقة في الإقناع واستخدام تعويذة سحرية في إيقاع ميلبيا بغرام كاليستو، وتحصل على سلسلة ذهبية من الأخير كمكافأة، لكنها ترفض مشاركتها مع خادميه لتموت في النهاية على أيدي سمبرونيو وبارمينو.

ينتهي العمل بمؤامرة من أليثيا وأريوسا لتصفية كاليستو، لكن الأخير يقتل نفسه عن طريق الخطأ عقب سقوطه من فوق سور منزل عشيقته أثناء هروبه. لا أتذكر أن الملخصات التي قرأتها حول قصة العمل تتحدث عن أنه أثناء محاولة هروبه باغته الأمن ليتعرض للسحل بعدها على يد أميني شرطة، بل فقط أنه قتل نفسه بعدما انزلق من فوق الجدار لتنتحر مليبيا بعدها حزنًا عليه.

كنت أرغب في رواية المسرحية بهذه الطريقة في ملخص قصة العمل بالمشروع الذي قدمته، وأن أحكي للأساتذة في ورقة الامتحان قصة "علاء بوكس" و"أبلة فاتن"، لكن للأسف لم أفعل هذا، فكما قلت مهمتي الأساسية تعلقت بالحفاظ على معدل درجاتي المرتفع. حصلت عبر مساعدة "ركن الكسلان وأبناء المصابين بالسرطان" على الدرجة الكاملة في المشروع، لكن أثناء امتحانات نصف العام كان الحاج صلاح قد رحل بالفعل.

***

لم اكن ارغب في ان يمر وداع المدينة الأخير من هنا، لكن هذا الشارع هو أكثر المناطق حيوية بجانب النزل. هو يناير ٢٠١٧. أنا في

العاصمة الماليزية بصحبة صديقيّ بهاء وطه. قررنا تناول العشاء في مطعم قريب من السكن قبل الاستعداد للسفر نحو جزيرة لنكاوي صبيحة اليوم التالي. أنسب مكان هو شارع "بوكيت بينتانج" والمعروف أيضًا باسم "شارع العرب". تنتشر به مطاعم المأكولات الشرق أوسطية، المقاهي، النراجيل. يشعر المرء هناك بأنه لم يقطع كل المسافة التي حلقها جوًا، وربما لهذا السبب أكرهه. الفارق الوحيد هو أنه بخلاف الطعام والدخان، فإن المرء لن يبذل مجهودًا كبيرًا للبحث عن إخوة وأخوات لا ثلستينا. أتحدث عن الجنس، فبين كل بناية وأخرى يجد المرء قواد أو قوادة يستوقفه أو تستوقفه بعبارات مثل "سيدة صغيرة؟" ،"فتاة جميلة؟"، "أسعار جيدة يا سيدي"، "تدليك من نوع خاص؟".

قبل هذا اليوم كنا نكتفي إما بتجاهلهم أو بقول عبارة "شكرًا يا سيدي" أو "شكرًا يا سيدتي". يا للحماقة! يستوقفك قواد أو قوادة في الشارع وتجيبه "Thank you, Sir" أو "Thanks, Ma'am"، لكن لا أعرف لماذا قررنا اليوم تحديدًا خوض هذا التحدي المتعلق بصدمة أول قوادة تصادفنا. ربما هي الرطوبة التي صهرت عقولنا، أو طعم مثلجات الفاصوليا الحمراء التي ابتعناها بطريق الخطأ، فالحوار الذي دار لاحقًا بين بهاء والقوادة الصينية التي استوقفتنا بدا ضربًا من الجنون:

- هل ترغب في فتاة جميلة؟
- لا ولكن هل لديكم قرود؟

وجه بهاء سؤاله بصورة طبيعية للغاية:

"No, but do you have monkeys?".

اعجز عن نسيان النظرة المصدومة والبلهاء التي ارتسمت على محيا العجوز الصينية. أعتقد أنها لم تتوقف عن سبنا في السر والعلن بعد استجماعها للموقف. رحلنا وسط ضحكات هستيرية. لم نصادف المزيد من القوادين في طريق عودتنا للنزل عقب خروجنا من "شارع العرب"، لكن شاهدنا قرب نهايته إحدى "عاهرات الصفوة" تقف أمام سيارة فارهة. بشرة بيضاء، شعر أسود منسدل، زينة أنيقة، فستان أسود قصير يبرز ساقيها الرشيقتين وصدرها المكتنز. تساءلت عما كان قد يفعله "بوكس" لو رآها. هل سيلعب عشرين مباراة متتالية لجمع المال وقضاء السهرة معها أيًا كان الثمن؟ أم أنه سيبتعد بتعال لأنها ليست نسخة فائقة الجودة ـوفقًا للمقاييس الشعبيةـ من روبي؟

* * *

أجلس بعدها بأربعة شهور في مقر عملي بحي الزمالك الهادئ. سأرحل عن المكتب حينما ينتصف الليل. تتبقى نصف ساعة على انتهاء الوردية ولأول مرة طوال الأسبوع أشعر بقدر من الراحة، فوتيرة العمل هادئة، لدرجة سمحت لي بوضع سماعات الأذن والاستماع لبعض الأغاني. ينساب صوت روبي عبر الأسلاك ويصل لأذنيّ. أدندن معها "طب ليه بيداري كده؟" بسعادة وأقرر إلقاء نظرة على (فيسبوك)، لكن الصفحة الرئيسية أشبه بحائط المبكى والسبب هي تلك المرأة الملعونة: لا ثلستينا.

حالفني التوفيق في الصيف السابق ولا اعرف كيف وجدت نفسي
'دير ندوتين في جامعة القاهرة عن الترجمة الصحفية من الإسبانية
للعربية والفرص المتاحة في سوق العمل بلغة ميجل دي ثربانتس. جاء
ترشيحي لإدارة الندوتين كأحد ابناء القسم المميزين. انا؟ حقًا؟

المهم أنني لا أدري لماذا أثرت إعجاب الطلبة بهذه الصورة وهكذا
بين ليلة وضحاها أصبح نصف الدفعة أصدقاء افتراضيين على حسابي
بـ(فيسبوك)، لهذا أرى الآن كل أشكال النحيب، البكاء وأحيانًا السخرية
التي ابتكروها للإعراب عن تخوفهم من امتحان الأدب النهائي
وبالأخص مسرحية "لا ثلستينا". يبدو أنهم محقين في توترهم وغضبهم،
يقولون إنهم طوال العام لم يدرسوا شيئًا يُذكر وفي الشهرالأخير لجأ
بعض الأساتذة لتكديس المنهج. لا أعرف ما هي الحيثيات الكاملة
للموضوع بكل صراحة، لكن لست في مزاج يسمح بقراءة كل هذه
الشكاوى من أشهر قوادة في الأدب الإسباني. أحرك عجلة الفأرة
بعصبية نحو الأسفل، لأواصل البحث عن شيء مضحك أو غريب
على الصفحة الرئيسية، لكن يصلني إخطار يفيد بتلقي رسالة في الوقت
الذي تقول فيه روبي: "لا ريح لي بالي ولا داري باللي جرى لي". هم
بكل تأكيد لا يدرون ما جرى لي. هذا ينطبق على تلك الطالبة التي
تخاطبني الآن بلقب "أستاذ" وتطلب مساعدتي بخصوص "لا ثلستينا"،
فعلى الرغم من دراستهم لنسخة مبسطة، إلا أن المسألة لا تزال صعبة،
فهم ما زالوا في الصف الثاني، لكن كيف أساعدها وأنا لم أقرأ المسرحية
حتى اليوم؟! أتساءل إذا كان موقع "ركن الكسلان" لا يزال قائمًا.

أجري بحثًا سريعًا وأجده. لا يزال كما هو وفي ظرف دقائق أشرح لها آلية عمله وكيفية البحث داخله، بل وأوصيها بعدم الاعتماد على النسخ بنسبة ١٠٠٪. يجب ان تصنع "خلطة جيدة". أنصحها أيضًا بألا يصبح ركيزتها الأساسية، فيجب أن تجتهد. اللجوء إليه مجرد حل أخير في الحالات الطارئة. ها أنا ذا.. القدوة المثالية، تمامًا كما يرغب الأساتذة الذين دعوني لإدارة الندوتين! أواصل تحريك عجلة الفأرة وفجأة يلفت انتباهي خبر بخصوص تفكيك شبكة للدعارة. تدخل قراءة أنباء الحوادث ضمن هواياتي. أحب الضحك على لغتها الركيكة وصياغتها المحفوظة، خاصة في قضايا الآداب. أضغط على الرابط، تفتح نافذة جديدة تستغرق بعض الوقت للتحميل ثم أشرع في القراءة:

القت مباحث آداب العامة بمديرية أمن القاهرة برئاسة اللواء (أيًا كان) وتحت إشراف اللواء (أيًا كان هو الآخر) القبض على شبكة دعارة تديرها سيدة.

وردت معلومات لضباط قسم مكافحة الآداب العام مفادها بأن "س ك" بدائرة قسم شرطة عين شمس تدير شقة للأعمال المنافية للآداب واستقطاب راغبي المتعة الحرام مقابل اجر مادي، ويعاونها في ذلك "ع س" الشهير بـ"بوكس" ودلت التحريات على صحة المعلومات.

أنزع السماعات من أذني. لا يهمني ما تقوله روبي الآن. أستند بظهري إلى المقعد محاولاً هضم الأمر، لكن يصلني إخطار بتلقي رسالة جديدة. أحد طلبة الدفعة يسألني بدوره عن إذا كنت قادرًا على

مساعدته بخصوص لا تلستينا. لا أحدثه هذه المرة عن "ركن الكسلان"، بل انسخ رابط خبر تفكيك شبكة الدعارة، أرسله له ثم اغلق جهازي وارحل.

(٢)

ثلاثية الأفاعي

"الذكريات خائنة للغاية: في لحظة ما تجد نفسك تائهًا في مهرجان من البهجة، محاطًا بعبير الطفولة، وسط الأضواء الساطعة لحلم البلوغ؛ كل تلك الحلوى العاطفية الزائفة، لكنها في التالية تقودك إلى مكان تبغضه. مكان مظلم وبارد مليء بأشكال غامضة ومشوهة ووددت لو كانت طي النسيان. الذكريات قد تكون وحوشًا صغيرة شريرة منفرة -مثل الأطفال كما أظن- لكن هل يمكننا العيش من دونها؟ الذكريات هي ركيزة العقل. إذا لم نتمكن من مواجهتها فإننا ننكر العقل نفسه. لكن لم لا؟ لا تربطنا علاقة تعاقدية بالعقلانية! لا يوجد بند لسلامة الصحة العقلية! لهذا حينما تجد نفسك محبوسًا في قطار كئيب من الأفكار وأنت تتوجه إلى أماكن في ماضيك لا يمكنك تحمل الصراخ فيها، تذكر أن الجنون دائمًا موجود. الجنون هو مخرج الطوارئ.. خطوة واحدة نحو الخروج ثم أغلق الباب خلفك على كل هذه الأشياء المرعبة التي حدثت. هكذا ستحبس هذه الذكريات.. للأبد"

الجوكر من فيلم

"Batman: The Killing Joke"

كشف حساب

ـ"عميل رقم ألف خمسة وستون.. شباك رقم واحد".

أسمع ذلك الصوت الأنثوي الرتيب عبر مكبرات الصوت المثبتة في المصرف وأنظر إلى رقمي. يتبقى ١٥٣ عميلاً فقط لا غير. أنا هنا منذ العاشرة والنصف صباحًا. مرت ساعتان والأمور تسير ببطء شديد. يبدو أن عدد المودعين الذين يرغبون في إجراء معاملات بقسم خدمة العملاء أكبر بكثير من قدرته التشغيلية. كل من يعملون في هذا المكتب هم ثلاثة موظفون فقط، لكن لا بأس. يجب أن أنتظر لإنهاء ما استيقظت مبكرًا من أجله. الخدمة التي أطلبها بسيطة: استخراج كشف حساب لمعاملاتي البنكية في آخر ستة أشهر، لكن الوقت يمر ثقيلاً كفيل ثمل خرج للتنزه بعد تناول عدد من ثمار الجميز الفاسد. الفرق الوحيد أن الفيل سعيد، لكن الجالسين تكسو ملامحهم الكآبة والترقب، فأغلب من خرجوا من خدمة العملاء غير راضين. لم يحصلوا على ما جاءوا من أجله.

يجب أن أكون في عملي بحلول الرابعة، لكن لا أعتقد انني سأتمكن من إنجاز الأمور في فرع البنك الأهلي المصري بحلمية الزيتون قبل الثالثة. اتصل بزميل سيدأ ورديته في السادسة وأطلب منه أن يحل محلي بداية من الرابعة عصرًا. يوافق على الفور؛ فأن تنهي عملك في منتصف الليل أفضل بكثير من أن تنهيه في الثانية صباحًا. الوقت هو العنصر الأهم في تلك الحياة، لذا يجب أن أحصل على ورقة كشف الحساب هذا الأسبوع، لأتمكن من إلحاقها بباقي الوثائق التي تطلبها السفارة التركية لاستخراج التأشيرة. هكذا سألبي رغبتها -أقصد زوجتي- في السفر إلى إسطنبول. تحملت الكثير، بداية من عدم إقامة حفل زفاف والاكتفاء بمراسم عقد القران في المسجد، مرورًا بالشقة الصغيرة التي كنا نسكن فيها سابقًا، وحتى موافقتها على سفري وحيدًا للخارج العام الماضي لنسيان كل ما تكبدته من ديون وعمل إضافي لشراء الشقة الجديدة. سأرد جزءًا من جميلها على كل هذا الصبر عبر هذه الرحلة. إسراء ليست في حاجة لتقديم كشف حساب عن كل تضحياتها لأمنحها هذه المكافأة الصغيرة. أنا أدرك تمامًا كل ما قدمته -كل ما تقدمه- من أجل سعادتنا، لكن يبدو أن موظفي خدمة العملاء يرغبون في إذلالنا لبعض الوقت قبل تحقيق مطلبي البسيط.

-"عميل رقم ألف ثلاثة وثمانون.. شباك رقم ثلاثة".

أكره الطريقة الآلية التي تُنطق بها هذه الأرقام. تُضفي مزيدًا من التوتر على الأجواء المحيطة بمن ينتظرون دورهم. البنك الأهلي يتبع

الدولة وفي أي مفصل حكومي لا بد من ظهور مشكلات مفاجئة، حتى لو كان هذا المفصل مؤسسة مصرفية تعمل عبر أموال موديعها.

أغلق البنك أبوابه علينا في الثالثة. لن يسمح بدخول عملاء جدد. سيكتفي بأولئك الموجودين في الداخل وإنهاء طلباتهم، لكن أحدهم الآن لا يتوقف عن الصراخ. يرغب في مقابلة مدير الفرع. ينهض حارس الأمن الأربعيني الأصلع العملاق من على مقعده ويتوجه لتهدئته، لكن الرجل يصر على مقابلة مدير الفرع. أرى في تلك اللحظة رجلاً منتفخًا كبالون. يبدو أن رقبته قد اختفت في ظروف غامضة أسفل ثنايا من اللحم المكسو ببشرة سمراء. أراه يهبط من الدور العلوي صارخًا هو الآخر. يطالب تفسيرًا لمعرفة السبب وراء هذه الضوضاء. هو الأستاذ فلان الفلاني مدير الفرع. يخبره العميل أنه هنا منذ العاشرة صباحًا لتغيير مبلغ مالي إلى العملة الصعبة من أجل السفر، لكن حينما جاء دوره أخبره الموظف بأنه لا يمكنه تلبية طلبه، رغمًا عن حيازته لتذكرة السفر والتأشيرة، فوفقًا للتعليمات لا يصح تنفيذ رغبته إلا قبل موعد السفر بثمانية وأربعين ساعة. سيسافر الرجل يوم الأحد وفي أيام الجمعة والسبت لا تعمل البنوك، فكيف له أن ينجز ما يريد؟ يصرخ في مدير الفرع لاعنًا اليوم الذي أودع فيه أمواله هنا، فلا توجد أي ورقة معلقة بأي مكان بخصوص هذه التعليمات، لم يُخبره أحد أيضًا بالمسألة حينما أخذ ورقة الدور. ضاع انتظاره هباءً. خمس ساعات كاملة دون تحقيق المطلوب، والأهم: كيف سيحصل الآن على العملة الصعبة اللازمة للسفر في ظل هذه اللائحة العجيبة؟! يخبره مدير الفرع

أنه ليس بيده شيء يفعله. حينما يفتح فمه ويتحدث أشعر أنه يسحب كل الهواء الموجود في المكان. يلتفت ويصعد للأعلى مجددًا كدب يسعى لتسلق سلم جبلي تاركًا العميل كدَيْسم بائس صغير تخلى عنه والده.

ـ "عميل رقم ألف وخمسة وتسعون.. شباك رقم خمسة".

هي الرابعة والنصف. لا يزال يتبقى ١٢٣ عميلاً على دوري، لكن عدد الجالسين يبدو أقل من هذا بكثير، لا أعرف إن كان قد مل البعض من الانتظار فقرروا الرحيل، أم أن هؤلاء الذين غابوا عن المشهد فجأة باتوا وجبة غداء دسمة لمدير الفرع الذي يسحب الهواء من المكان. هذه قضية غامضة، لكن هذا ليس الوقت الأمثل للكشف عن أسرارها عبر مهاراتي البوليسية الفذة. أسلي نفسي بهذا الهراء التخيلي بعدما أدركت أنني لن أتمكن حتى من الوصول للعمل في السادسة كما تصورت، كيف سأفعل هذا بعدما جاءنا حارس الأمن بنبوءته السيئة بعد توقف حركة استدعاء الموجودين إلى مكتب خدمة العملاء: "السيستم تقريبًا واقع".

- يا رب المكتب يقع على دماغهم.

نطقت سيدة مُسنة بهذه العبارة بينما تستند بيديها على عكازها ليضحك أغلب الحضور. هي هنا منذ العاشرة والنصف لأن ماكينة الصرف سرقتها. هذا هو ما تقوله. أجرت عملية سحب ولم تخرج النقود وفوجئت بخصمها من رصيدها. اتصلت برقم خدمة العملاء وأخبروها بضرورة التوجه إلى الفرع لحل المشكلة مع "ولاد الكلب

الحرامية"، لكن هناك نوع آخر من السرقة وكسر القواعد يمارس الآن، فحارس الأمن الجالس بجوار البوابة المغلقة ومكتب خدمة العملاء يدخن أسفل لوحة معدنية كُتب عليها "يُرجى من السادة العملاء الامتناع عن التدخين تنفيذًا لأحكام القانون". حارس الأمن ليس عميلاً بالمصرف، لهذا يمكنه التدخين طالما أن أبواب البنك قد أغلقت. هذه هي الثغرة القانونية التي يعلنها الرجل الأصلع العملاق وهو ينفث دخانه، لكن رائحة النيكوتين والقطران المحترق تثير الشهوة في نفوس مدخنين آخرين. توجه اثنان منهم نحوه لإيجاد حل.

لم يبخل عليهم بالنصيحة وقدم لهم يد العون. هكذا يؤازر المدخنون بعضهم وهذه هي الطريقة المثلى لتقديم خدمة عملاء لائقة، فبالنسبة لمن يرغبون في التدخين يمكنهم التوجه إلى المنطقة التي تقع خلف الكاونتر لممارسة الرذيلة مع سجائرهم، ففي تلك المنطقة الرمادية المليئة بالأسرار لا يمكن للـ"قامارا" أن تلتقطهم. لم أشعر باستياء كبير من نطق "الكاميرا" بهذه الطريقة. سبق وأن سمعته كثيرًا، فبعض المصريين لديهم هواية في نطق الكاف كقاف والعكس صحيح؛ هكذا تصبح الكاميرا "قامارا" والكاميرون "القاميرون" وبطولة أفريقيا "بطولة أفريكيا". ما يعنيني هو وجود مكان تُصاب فيه كاميرات البنك بالعمى ولا تقدر على التقاط ما يدور فيه، استأت أيضًا من البساطة التي كشف بها حارس الأمن النقاب عن الأمر.

لست هنا لحساب البعض على طريقة نطقه للكلمات أو لمحاسبة إدارة البنك على تقصيرها الأمني في توفير الحماية الكاملة لأموال

المودعين وكاميرات مراقبة لا تنقل صورة كاملة، لست هنا حتى لمحاسبتهم على تأخري عن العمل فهي الخامسة والنصف الآن. كل ما أرغب فيه هو استخراج كشف الحساب. أنا على بُعد ثمانية أرقام، لكن كل من ينتظرون لدخول خدمة العملاء هم خمسة. توجد ثلاث حالات اختفاء غامضة أخرى. هل هذا هو وقت تحلية مدير الفرع؟ صوت يأتي مقهقهًا من الدور العلوي. ربما راقته التحلية بصورة فجرت سريان هرمون الدوبامين في جسده لتبدو ضحكاته بكل هذه السعادة.

لم أتمكن من إخراج مهاراتي البوليسية والبحث عن الأدلة المنشودة للكشف عن أول قضية آكل لحوم في العقد الثاني بالقرن الحادي والعشرين داخل جمهورية مصر العربية، فقد حان دوري أخيرًا. أنا الآن داخل مكتب خدمة العملاء بفرع البنك الأهلي المصري بحلمية الزيتون. سأضيف هذا الإنجاز في سيرتي الذاتية بجانب قدرتي على العمل تحت ضغط. أشعر أن ضغط دمي قد ارتفع بالفعل بعد الانتظار لفترة تصل إلى ثمان ساعات من أجل استخراج تلك الوثيقة الحمقاء. يستقبلني الموظف بابتسامة صفراء ويسألني كيف يُمكنه مساعدتي. أخرج جواز سفري وأخبره بحاجتي إلى كشف حساب باللغة الإنجليزية لمعاملاتي في أخر ستة شهور. ترتسم ابتسامة أخرى عريضة على شفتيه. لا أدري إن كانت ساخرة أم لا، لكنه يشرح لي المشكلة التي تمنع تنفيذ طلبي: البنك الأهلي أجرى تحديثا لنظامه في ١٨ أبريل ومعه تغيرت أرقام حسابات العملاء، وفي الوقت الحالي، بسبب حداثة النظام، ووجود بعض الأخطاء به توجد مشكلتان؛ أولاً لا يمكن الوصول للمعاملات البنكية

التي تسبق تاريخ ١٨ أبريل، وثانيًا حتى ولو كانت هناك طريقة للوصول للمعاملات السابقة وهو أمر مستحيل، فلن يقدر على طباعته بالإنجليزية نتيجة لعدم توافر هذه الخاصية في النظام الجديد حتى الآن. صوت يعلو من هنا ومن هناك. تهديدات بلا جدوى مني بتقديم شكوى للفرع الرئيسي يقابلها برود كبير، لأن هذه المشكلة معممة في كل الفروع. أخرج من الباب الخلفي للمصرف ببطء بينما أسب وألعن اليوم الذي أودعت أموالي في هذه المؤسسة.

هي السادسة والنصف. كان من المفترض أن أصل في السادسة لمقر عملي بالزمالك متأخرًا ساعتين عن موعدي الأصلي، لكن هي الآن السادسة والنصف ولم أصل حتى إلى محطة مترو المطرية. يجب أن أصل في أسرع وقت، ليس بسبب تخوفي من مشكلة قد تحدث، فلحسن الحظ يوجد نوع من الليونة في مسألة المواعيد طالما كان هناك عذرًا مقبولاً، كما أنني سأظل حتى الثالثة صباحًا في المكتب لتعويض تأخيري. الأمر يتعلق بشيء أهم من هذا. قد يبدو تافهًا، لكنه بالنسبة لي أهم من أي أمر آخر. ففي الثامنة مساء سيلعب ريال مدريد في الجولة الأخيرة من مسابقة الدوري الإسباني مع نادي مالاجا. إذا فاز سيصبح بطلاً لموسم ٢٠١٦_٢٠١٧ وينهي خمسة أعوام عجاف دون حصد لقب الليجا. لا يجب أن يخسر النادي الملكي. لا يمكن أن يكون يومي سيئًا بهذه الصورة. لا بد من أن زين الدين زيدان وسرخيو راموس وكريستيانو رونالدو سيصلحون ما أفسده البنك الأهلي المصري من مضيعة للوقت وتخريب لمخططات سفري. أنا متفائل. سيتوج ريال مدريد باللقب لأثير

غضب أصدقائي من مشجعي برشلونة. سأعثر أيضًا على حل لهذه المشكلة البنكية لأجد نفسي قريبًا في إسطنبول.

أنا الآن في الزمالك. وصلت للمكتب في السابعة والنصف، قبل موعد المباراة بنصف ساعة. أفضل ما في عملي كمحرر هي كرة القدم. هي التسلية الوحيدة التي أحصل عليها هنا بين أخبار السياسة، الحروب، إدانة هذا، شجب ذاك، قلق الأمم المتحدة العميق إزاء تلك القضية وتطور العلاقات الاقتصادية بين إسبانيا وكازاخستان! هي المُتنفس الوحيد بين كل هذه الأمور، خاصة إذا تعلق الأمر بفريقي المفضل ريال مدريد. حياة المترجم والمحرر بوكالة أجنبية ليست هينة. تتطلب مهارة لغوية، ذهن حاضر واطّلاع معقول قابل للتمدد مع الوقت ليصبح أشمل وأوسع. بعد مرور تسع سنوات على وجودي هنا لا زلت أتعلم، لكن وقت الفُسحة يأتي مع كل خبر أو تقرير أو أي شيء يتعلق بكرة القدم. لا توجد مباراة أهم من هذه، فكل جماهير الريال بنهاية الموسم ستطلع على كشف الحساب الذي سيقدمه زيدان وفريقه، إما كمجموعة من الأبطال، أو كزمرة أسود حمقى فشلت في اصطياد فريسة منهكة. يختلف كشف الحساب الكروي عن نظيره البنكي، فهنا لا يهم كيف كانت الأمور في آخر ستة شهور، بل بالمواجهة الأخيرة مع مالاجا. الفوز أو التعادل فيها سيعني الحصول على التأشيرة، أقصد اللقب.

انتهيت في أول نصف ساعة من ترجمة ثلاثة أخبار، في محاولة لتعويض تأخيري وتخفيض وتيرة العمل أثناء سير المواجهة المرتقبة. لا

توجد أخبار كثيرة في الحقيقة. يبدو أنها ستكون وردية هادئة. لم يخذلني فريقي في نهاية المطاف. فاز بهدفين نظيفين. أنهى صيامًا استمر خمس سنوات عن الفوز باللقب، قبل حوالي أسبوع من رمضان ٢٠١٧.

بدأت حركة العمل تزيد، لكن أغلب الأخبار تتعلق بالكرة وفوز الريال بالليجا: تصريحات، ردود أفعال، تقارير، تحليلات كروية. أتعامل معها جميعًا ببراعة، أريحية وسعادة. حسنًا.. قد يظهر فجأة نبأ عن دونالد ترامب وزيارته للسعودية أو خبر عاجل عن اعتداء نفذه متمردون في كولومبيا، لكن الحدث الرئيسي هو لقب الليجا. يرحل زملائي مع انتصاف الليل. يجب أن أظل في المكتب حتى الثالثة صباحًا لتعويض تأخيري، لكن رئيس الوردية يخبرني أنه يمكنني الرحيل في الثانية إذا كانت تغطية تتويج ريال مدريد باللقب قد انتهت. هو رجل طيب. يعلم كيف كان يومي ويدرك جيدًا ما قدمته لهذا المكتب، فقلة هي من عملت لأربعة عشر أو ستة عشر ساعة متواصلة هنا حينما استدعت الحاجة وأنا واحد من ضمن هذه الفئة البلهاء المختارة.

- "عميل رقم واحد.. الرجاء التوجه إلى باب الخروج".

تردد ذلك الصوت الأنثوي داخل ذهني في الثانية والنصف بعد انتهاء التغطية، لكنه هذه المرة لم يُنطق برتابة وطريقة آلية، بل بصوت ناعم ورقيق. يبدو أن فوز ريال مدريد باللقب جعل يومي سعيدًا في النهاية، رغمًا عن كل ما حدث. أغلق جهازي بينما أفرك عينيّ. أشعر بصداع شديد. أرغب في النوم. أتمنى الا يتملكني شبح الأرق لدى

عودتي للمنزل. انا في حاجة شديدة للراحة. أغلق المكتب وأستدعي المصعد. لا أحب المصاعد القديمة، تلك التي تضطر فيها إلى فتح باب رئيسي ثم باب أخر من ضلفتين لتدلف إلى الداخل. لا أقوى على هبوط الأدوار الثلاثة كما اعتدت لذا لا مانع من اللجوء إليه هذه المرة. أدلف إلى الداخل. أغلق الباب الرئيسي وضلفتي الباب الداخلي. أضغط رقم صفر ليبدأ المصعد في الهبوط، لكن فجأة ينقطع التيار ويتوقف المصعد عن الحركة. أنتظر لمدة خمس دقائق دون محاولة لطلب النجدة فربما يعود التيار سريعًا، لكن بطارية المحمول تنفد وأعجز عن الاستئناس بخاصية الكشاف. أبدأ الآن في الضرب على الباب بيدي والنداء على حارس العقار "عم مبارح"، لكن لا يجيبني أحد. الوقت متأخر للغاية. يبدو أنني لن أبارح المصعد إلا مع عودة التيار. أجلس على الأرضية وأنزوي في الركن الأيمن محاولاً تمديد ساقي وأغلق عينيّ.

لا أعرف كم مر من الوقت، لكن فجأة أشعر بنوع من الإضاءة القوية يضرب وجهي. شيء ما يتحرك معي في المصعد. لا أتعرق رغمًا عن حرارة الجو بل أشعر بالبرد. أفتح عينيّ لأجده يتمايل أمامي بعينين متقدتين ورأس كبيرة مهيبة، فم متسع يبرز منه نابان غاية في الحدة واللمعان كأنهما قد سُنا للتو. أنزوي أكثر في ركن المصعد. أسأله بصوت مرتعش :

- أنت الثعبان الأقر..؟

يقاطعني بغضب بينما يقرب رأسه المهيبة من وجهي لتعميني إضاءة عينيه:

- لا تكملها. لا يهم من أكون. لست هنا من أجل الحساب، أو حتى الكشف عن أفعالك، نواياك أو أي شيء آخر. أنا هنا فقط من أجل الدردشة معك بخصوص الحكومة والكرة وأزمة التحكيم.

أرغب في الرد، لكن لساني ينعقد. أظن أنه شلل النوم وهذه هي أحد الهلاوس الجديدة. أحاول تحريك ساقيّ وأنجح في الأمر. ظني كان خاطئًا. هذه ليست إحدى ألاعيب الجاثوم، فأنا أسيطر على عضلاتي بصورة كاملة، لكن الصدمة أصابت لساني بالشلل. أنا معلق بين السماء والأرض في المصعد. المصعد قبر صغير معلق بين الدورين الثاني والثالث وبه ثعبان مخيف يرغب في الدردشة معي عن الحكومة وكرة القدم وأزمة التحكيم وينفي كونه الثعبان الأقرع، الأسطورة الدينية التي حدثني عنها سائق التاكسي في نهاية بحثي عن الحقيقة وراء المطرية، تلك الحقيقة التي لم أصل إليها.

- لا تخف يا رجل. أخرج ما لديك. تتحدث دائمًا عن التحكيم والكرة والمؤسسات الحكومية. تفعل هذا كثيرًا في غيابي وفي المرة الوحيدة التي أزورك فيها ترفض الدردشة.

تنفك عقدة لساني لأجيبه بصوت خافت وبفصحى ركيكة:

ـ أرغب فقط في العودة للمنزل. لا يهمني الحديث عن التحكيم أو الكرة أو أي شيء آخر.

يفتح فكيه الكبيرين بينما يضحك بخبث. يبدو حلقه بعدما فتح فكيه كنفق طويل عميق لا نهاية له، نفق لا يوصل إلى أي مكان، بل ربما إلى العالم الآخر، لا بل إلى عالم آخر. يتوقف عن الضحك قبل أن يسألني:

ـ لماذا ترغب في العودة الآن؟ كان أمامك فرصة لطلب إجازة، لكنك فضلت المجيء إلى هنا من أجل العمل. أتعلم ما هي مشكلتك؟ تعتقد أنك مثل أرنب "انرجايزر"، مصدر طويل الأمد للطاقة، بطارية لا تنضب، لهذا تسعى للقيام بكل شيء. أشاطرك نفس الرأي. لقد أثبت هذا. أنت مصدر طويل الأمد للطاقة. أحب الأرانب على ذكر الكلام، بل وأشتهيها الآن، لكن أتدري ما هو أفضل شيء بالنسبة لنا معشر الثعابين؟ أننا على النقيض من بني البشر لا نضطر لسلخ الأرنب قبل التهامه. يكفي فقط أن يعتصره أي منا بجسده البارد حتى تتكسر عظامه قبل أن يفتح فكيه لالتهامه في عملية بطيئة ولذيذة. سأحب أن أعتصرك بجسدي يا أرنبي البشري العزيز، ربما سأداعبك بذيلي ذي الأجراس حينها. لا أرغب في أن يفرز جسدك هرمونات تفسد مذاقك. أفضل أن تكون ابتسامة واسعة هي آخر ما أراه على محياك، لكن لا تقلق لن أفعل هذا، على الأقل ليس الآن، أو.. ربما سأفعله الآن ـودون مداعبةـ لأنك ترفض التعاون.

أشعر بجسده البارد يلتف حولي بقوة. يعتصرني. أفقدني تمامًا القدرة على الحركة. يتنصب رأسه المهيب الآن فوقي. يفتح فكيه الكبيرين، أشم رائحة عجيبة تأتي منه. ليست مزعجة بالمرة، لكني خائف. لا أقدر على التملص منه. لقد نفدت طاقة "أرنب انرجايزر". لا مانع من الاستسلام. أرى فكيه يقتربان في بطء. أنا الآن داخله، في مسار دودي يبدو كأنه لا نهاية له. أنزلق إلى الداخل، كطفل قلق يلهو للمرة الأولى في حديقة للألعاب المائية. تزداد سرعة الانزلاق فجأة. أشعر كأن جسدي يهوي. أفتح عينيّ. أنا أهوي بالفعل، لكن لا زلت داخل المصعد، والثعبان قد اختفى. يبدو أن التيار قد عاد، لكن عطل ما أصاب المصعد وها هو يهوي سريعًا إلى بئر السلم. صوت الارتطام هذا كفيل بإيقاظ الكل. المصعد مجددًا يبدو قبر صغير، لكنه هذه المرة معلق بين الدور الأرضي، وما تحته. أسمع صوت "عم مبارح" يأتي مسرعًا. أصرخ لأخبره بتواجدي في الداخل. أرغب في أن أبارح هذا المصعد. أشعر بأن جسدي تعرض لضرب مبرح. لحسن الحظ لم أتعرض لكسور، ربما بعض الكدمات، لكن لا زلت سليمًا. يتمكن البواب من فتح الباب الخارجي، لكن المصعد معلق. أفتح ضلفتي الباب الداخلي وما أراه هو قدمي "عم مبارح"، هناك فراغ بين سقف المصعد المعلق وأرضية مدخل العقار، يبدو كنافذة علوية لأحد الأقباء. يبدو أنني قضيت وقتًا طويلاً في المصعد، فأنا أرى نور الفجر. يلعن "عم مبارح" هذه "الوقعة السوداء"، فلا يوجد فني مصاعد قد يأتي ليصلح العطل في هذا الوقت ويسألني عن سبب وجودي حتى هذه الساعة، حتى "عم

مبارح" يرغب في محاسبتي وأنا حبيس المصعد. هل هو اليوم العالمي لكشف الحساب؟ ربما يوم الحساب؟ لكن لا أشعر أن دينونتي اقتربت. "أرنب انرجايزر" لا يزال به بعض الطاقة، سقوطه مع المصعد كأن له أثر العضعضة على بطارية قديمة لتعمل مجددًا. أتخذ قرارًا لن يثنيني عنه أحد -حتى "عم مبارح"- سأتسلق المصعد وأحاول الخروج من هذا الفراغ العلوي. الأمر ينطوي على خطورة، فربما تسقط الكابينة وينشطر جسدي لنصفين، لكن هذا أفضل من البقاء في مكان تراءى لي فيه ثعبان يرغب في الحديث عن الكرة والتحكيم والحكومة. تفشل محاولتي في المرة الأولى ومع سقوطي تهتز الكابينة. يصرخ "عم مبارح"، لكني ما زلت مُصرًا. أتعلق بالحافة مجددًا وأزحف بجسدي قليلاً نحو الخارج. يجذبني من ذراعي بمساعدة ابنه، بينما أحاول فرد نصف جسدي المتبقي في الداخل لتسهيل عملية خروجي. أنجح وأنهض لأجد ملابسي قد امتلأت بالتراب وبعض الخدوش التي تُزين ذراعيّ. يلح "عم مبارح" لمعرفة سبب تواجدي في هذه الساعة. أخبره بغضب بينما أحاول نفض التراب لأخرج بعدها نحو الشارع. أفكر في أنني سأجد الشمس قد أشرقت من مغربها، لكن هذا لم يحدث. يوم الدينونة لم يحن بعد، فكل الأمور طبيعية، حتى تصرف أمين الشرطة الذي استوقفني لدى مروري أمام سفارة الفاتيكان، فليس من المعتاد أن يسير شخص في الخامسة والنصف فجرًا بالحي الراقي بملابس متربة وجسد مليء بالخدوش دون أن يثير الشكوك. كنت أرغب في إخباره بقصة هذا اليوم الطويل مدير فرع البنك ونظريتي حول أكل لحوم البشر وخدمة العملاء

والنظام الجديد وريال مدريد ولقب الليجا والثعبان ورأسه المهيب، لكن اكتفيت بإظهار البطاقة وحكاية عطل المصعد. مرت سيارة أجرة من جانبنا فأسرعت لأوقفها، فمن الصعب أن أجد واحدة أخرى في مثل هذا الموعد المبكر، لكن حينما توقفت تراجعت سريعًا.

مرة أخرى كان أمين الشرطة محقًا في تعجبه، فهو لا يعلم هوية السائق، لكن أنا الوحيد الذي يعلمها. هو رجل ذو لحية بيضاء مهيبة، لكنه عصبي للغاية. في المرة الأولى التي رأيته كان لا يتوقف عن انتقاد هذا وذاك أثناء القيادة. أظنه كان محقًا حينها حينما عنف الشاب الذي يعبر الشارع بكل لا مبالاة وكاد يقع تحت إطارات سيارته. لم أدرك حينما قابلته للمرة الأولى كيف بدأ الحديث بيننا عن عذاب القبر والثعبان الأقرع. لا أرغب الآن بينما أقف أمام سفارة الفاتيكان في الحديث معه عن أمور مختلفة، لكنها مشابهة. لا أرغب في مناقشته بخصوص عذاب المصعد والثعبان المحب للكرة، خاصة بعدما لاحظت أن أحد الخدوش على ذراعي الأيمن يبدو كعضة من نابين غاية في الحدة، عضة من نابين يبدو أنهما قد سُنا للتو.

إبراهيم الرفاعي

يتعالى صوت الموسيقى الصعيدية القادم من الشارع. يقتحم الغرفة عنوة. يعبر الصالة حتى يصل إلى الحجرة الواقعة في الطرف الآخر من الشقة. لا يصح أن يتصل الحاج صلاح بالشرطة ليبلغ عن هذا الإزعاج. أصول الجيرة تمنعه، ففي النهاية هذا هو فرح "مشهور"، ابن صاحب البيت المجاور لمنزلنا القديم بشارع إبراهيم الرفاعي، لهذا لا مانع من تحمل الطبل والزمر والضحكات، وحتى مهرجان المصابيح التي عُلقت بعض أسلاكها في منشر شرفتنا. تقتحم ألوانها هي الأخرى الحجرةَ عنوة. تنطفئ جدرانها قبل أن تنيرها مجددًا انعكاسات هذه الألوان: الأخضر والأحمر والأصفر والأزرق. الحجرة ملهى ليلي صغير في شقة عائلة محافظة تنتمي للطبقة المتوسطة، ينقصها فقط كرة دوارة معلقة في السقف ومسرح رقص وتشكيلة مختلفة من الموسيقى لتكتسب هيئة الديسكو المثالية.

يدلف الحاج صلاح إلى الغرفة المطلة على الشارع ومنها نحو الشرفة. علمت هذا عبر أزيز الباب. أتجرأ على نفض الغطاء، النهوض

من على الفراش والخروج من حجرتنا ـأنا وأخي- المطلة على المنور لألحق بأبي. لا أظن أنه سينهرني فنحن في ليلة الخميس. غدًا الجمعة عطلة رسمية، هو يدرك جيدًا أن الكل سيعجز عن النوم في هذا المساء. المعلم "أبو مشهور" وضيوفه هم أصحاب الكلمة العليا اليوم. مثلما يعلن المحاربون القدامى عن بدء المعركة بالنفخ في أبواقهم، سيصدر المعلم فرمانه في وقت لاحق لإنهاء هذا المعترك الاحتفالي، ستحل "ساعة القيامة" بنفخ أخر أنفاس أيًا كان ما يدخنه هو وجمهوره الغفير. هكذا سينتهي الحفل. سيصعد ابنه ليدخل دنياه، سينطلق الضيوف في رحلة عودتهم الطويلة نحو الصعيد، وسندخل نحن الساهرون المتطفلون الواقفون في الشرفات إلى غرفنا لمحاولة اللحاق بقطار النوم، ذلك الذي سيأخذنا جميعًا في رحلة إلى صلاة الجمعة باليوم التالي.

أجلس فوق العشة الخشبية الموجودة في الشرفة لأراقب ما يحدث على أرض شارع إبراهيم الرفاعي. أتخذ كعادتي وضعية المراقب الصامت. هي الوضعية التي تليق بطفل مثلي. ينتصب صيوان كبير في الشارع. لا أعرف لماذا تتشابه ألوان أقمشة صوايين الأفراح والمآتم، ربما لأن الحياة والموت ليسا في عداوة، بل هما وجهان لنفس العملة. تختلف الإضاءة بالطبع، فمهرجان الألوان في الأفراح ليس سوى انعكاسًا لبهرجة الحياة، والإنارة البيضاء في سرادق العزاء تخبرنا أنه لا شيء سيبقى سوى العدم. لا أميز وجوهًا، أرى فقط عممًا وجلاليب قاتمة الألوان تُدثر مجموعة من الرجال والشباب الأشداء وكراسي خشبية تتراص حول طاولات مختلفة الأشكال والأحجام. تعلو هذه الطاولات

علب سجائر. ربما جوزة أو اثنتين، لكن توجد استثناءات، فبعض الطاولات تعلوها زجاجات خضراء غريبة الشكل يحتسي الرجال ما فيها بسعادة. أتعجب كثيرًا من وجود برميلين خشبيين داخل الصيوان أسفل سحب الدخان التي تتغير ألوانها مع كل رعشة في المصابيح المعلقة. يحتوي البرميلان على كمية لا بأس بها من هذه الزجاجات الخضراء الغامضة، توجد أيضًا قطع بل شرائح كبيرة من الثلج داخلها. الزجاجات الخضراء الوحيدة التي رأيتها في حياتي، هي مطهر ال"فنيك"، ذلك الذي تستعمله أمي كل خميس في مسح وتنظيف الشقة. رائحته نفاذة للغاية، ربما يجدها البعض سيئة، لكنني لسبب أجهله أحبها، ربما لأنني أحيانًا كنت ألهو وسط المياه بالممسحة كل أسبوع بينما تعتني أمي بنظافة بيتها. لم أنطق بشيء منذ دخولي للشرفة، تخوفًا من أن يرسلني الحاج صلاح إلى الداخل. لا أرغب في الانتظار على محطة قطار النوم لوقت طويل، فهو لن يصل قبل انتهاء الفرح. أتمنى الجلوس معه هنا في الكافيتريا ذات الطلة العلوية على الشارع حتى يقترب موعد الوصول، لكني لا أجد بُدًا من سؤاله بكل براءة عن السبب الذي يدفع هؤلاء الرجال لشرب ال"فنيك".

يقهقه الحاج صلاح. تعكس عيناه الخضراوان انطباعًا لا أفهمه، يتبدل لونهما مع تغير ألوان المصابيح. يمازحني بقوله إن السبب وراء شرب هؤلاء الرجال للا"فنيك" هو "تطهير بطونهم". ستمر عدة سنوات قبل إدراك أن البيرة هي ما تجرعه بعض المدعوين في تلك الليلة. لحسن الحظ لم أتعرض لتسمم في الفترة الزمنية الفاصلة بين جهلي ومعرفتي

وإلا كنت سأفكر في تطهير بطني بواحدة من زجاجات الـ"فنيك" المخزنة أسفل الحوض في المطبخ.

يعود الصمت ليتسيد مشهد الحاج صلاح الواقف بجوار ابنه الجالس على العشة الخشبية بشقة شارع إبراهيم الرفاعي، لكنه مجرد صمت عائلي معتاد. يأتي هذه المرة وسط ضوضاء الموسيقى الصعيدية العابرة للجدران. أنظر مجددًا للأسفل، نحو الصيوان. هناك حالة من التأهب. يبدو أن الراقصة ستصل قريبًا. هذا هو ما يقوله أحدهم. ألمح في نهاية الصيوان، رجلاً يرتدي -على عكس باقي الحضور- جلابية بيضاء. لا تبدو ملامحه صعيدية. هي ريفية أكثر من كونها صعيدية. أعتقد أنه نظر لي وابتسم. هل فعل هذا حقًا؟ لا أعرف حتى يومنا هذا، فأنا مجرد طفل لا يعرف الفارق بين الـ"فنيك" والبيرة ورجل يجاهد لانتزاع ذكرياته البعيدة، لكن أنا واثق مما رأيته لاحقًا: ها هو يتمشى إلى الخارج، بعيدًا عن الأجواء الاحتفالية التي تتأهب لوصول الراقصة. يسير في ذلك الممر الضيق الذي شكله ظهر الصيوان وواجهة بيتنا والمنازل المجاورة. أراه ينفض أكمامه أسفل شرفتنا وهو يواصل طريقه. يسقط منه شيء ما، لكنه لا يقف لالتقاطه. لا أعرف ماهيته. يستمر الرجل في السير حتى يصل إلى البوابة الخلفية لسترال المطرية ثم يتجه يمينا نحو شارع الترولللي ويختفي كثعبان ماكر عن الأنظار، أدفع رأسي نحو الأمام محاولاً تدقيق النظر نحو الأسفل لمعرفة ما سقط منه، لكن اتهام الحاج صلاح لي بالجنون يعيدني إلى رشدي، فقد أسقط وتنكسر رقبتي. يرفعني من فوق العشة الخشبية ويأمرني بالذهاب إلى الغرفة. أنا

أحمق. هذا الخطأ سيحرمني من متعة الكافيتريا. سأضطر لانتظار قطار النوم على الرصيف المطل على المنور.

***

يصل قطار النوم ببطء إلى رصيف يوم الجمعة، صافرته هي تثاؤبي وصريره فوق القضبان -ذلك الصرير الذي يوقظ الراكب النائم- هو الضوضاء الصادرة من ورشة "عم سيد" الحداد، هناك أسفل شرفتنا. يضرب الرجل الآن بمطرقته على قطع مختلفة الأشكال والأحجام من الحديد. يثنيها ويقومها ويعدل من هيئتها. "عم سيد" رجل قصير، عريض الصدر، ذو ذراعين قويين. لم يسبق لي رؤيته بملابس تخلو من بقع الشحم، لكن رأسه تتزين دائمًا بطاقية صلاة ناصعة البياض تتعارض بشدة مع بشرته السمراء واتساخ ملابسه. يعمل "عم سيد" يوم الجمعة، فهو رجل على الطراز القديم. يلتزم بالقاعدة الشفهية غير المكتوبة بين الحدادين التي توصي بإغلاق الورش في أيام الأحد فقط. يبدأ كل جمعة عمله باكرًا ليعوض الوقت الضائع في فترة الصلاة. هو الديك الذي يستيقظ الجميع على صياحه المتكرر في وجه صبيه بطيء الفهم، هو الإله "ثور" الذي يوقظ أهالي شارع إبراهيم الرفاعي بهزيم الرعد الصادر من مطرقته.

أخرج من الغرفة وأجد أن الحاج صلاح قد أعد بالفعل طبقًا رائعًا من الفول. لم أعرف أحدًا يمكنه تحبيش الإفطار وطبق الفول مثله. في النهاية هو أحد أبناء عائلة الفولي ويجب أن يكون اسمه على مسمى.

نتناول إفطارنا سريعًا، لكن أخشى ما قد يأتي بعد الصلاة. لا أرغب اليوم في الصعود نحو السطوح لضبط الهوائي، فسهرة الليلة الماضية على محطة قطار النوم قد أرهقتني. يتوقف الصوت الصادر من ورشة "عم سيد". يبدو أن صلاة الجمعة قد حانت. أسمع صوت الشيخ المتحشرج وهو يؤذن. حسنًا هو ليس شيخًا، هو أحد أبناء المنطقة الذي أصبح مسؤولاً عن الجامع المجاور. صوته لا يناسب طابع الآذان والمفهوم الروحاني ليوم الجمعة، لكن هذا هو الموجود. يسبقني الحاج صلاح نحو الجامع وأقرر لدى نزولي الذهاب لمسجد آخر. أنا لا أحب صوت هذا الشيخ. لا أرغب في الصلاة خلفه. المسجد الآخر ليس بعيدًا، بل يقع بعد ناصيتين تقريبًا والأهم من هذا أنه أسرع؛ فالصلاة والخطبة والدعاء لا يستغرقون أكثر من ثلث ساعة!

أنهي الصلاة وأعود سريعًا لشارع إبراهيم الرفاعي. المُصلون يرددون الآن كلمة "آمين" بعد كل دعاء للإمام. سأصعد الآن لشقتنا وأشاهد برنامج "عالم الحيوان" منذ بدايته وأدعو ألا نضطر بعدها لممارسة طقس العطلة المعتاد لضبط الهوائي. بينما أدعو وأقول "آمين"، أسمع المصلون:

ـالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. السلام عليكم ورحمه الله.

انتهت الصلاة في المسجد المجاور، أسمع الضوضاء الصادرة من المصلين كهمهمة تعاظمت عبر مكبر صوت تقتحم شقتنا. تهدأ الضوضاء لكن الحاج صلاح لم يصعد بعد. لا أسمع صوت مطرقة "عم

سيد". هل عاقب الرب نسخة المطرية الشعبية من الإله "ثور" وحرمه من مطرقته؟ ما الذي يحدث؟ أشعر أن هناك أمر غامض يجري، لكني اعجز عن دخول غرفة الشرفة المطلة على الشارع، فأمي تنظفها الآن. هي الحجرة الوحيدة الباقية دون تنظيف. سأقف أمام الباب لأشم رائحة الـ"فنيك" وأنتظر انتهاء هذه المهمة. تمر ربع ساعة أخرى وأسمع صوت جرس الباب يأتي كعصفور أمسكه أحدهم من عنقه بينما يزقزق. أركض نحو الباب وأفتحه. ها هو الوالد يأتي، لكن على محياه يرتسم خليط من الدهشة والشك والتعجب والقلق. لا أعتقد أنني رأيت كل هذه المشاعر في نفس الوقت على وجهه من قبل. تمسح أمي بظهر يدها العرق المتصبب على جبهتها وهي تسأله عن سبب تأخره بعد الصلاة، ويحكي لها أغرب قصة سمعتها؛ فبينما كان يستعد للصعود سمع رجلاً يرتدي جلابية بيضاء كأغلب المصلين، لكن بها شيء ما مختلف لم يستطع تحديده، يخبر "عم سيد" أن ورشته بها ثعابين.

تسقط الممسحة من يد والدتي، بينما يتابع الحاج صلاح مدير الشؤون القانونية بشركة المراجل البخارية السرد: يرفض "عم سيد" هذا الادعاء فورشته نظيفة تمامًا، لكن الرجل الغامض يخبره بأنه يعلم ما يقوله فهو "رفاعي".

أقاطع أبي لأسأله عن ما تعنيه هذه الكلمة، يأخذ نفسًا طويلاً. أعتقد أنه سيقدم شرحًا مطولاً كعادته، لكنه يكتفي بقول إنهم أناس يخرجون الأفاعي من جحورها. حتى وأنا في هذا السن لم أجد أن هذه الإجابة شافية وكافية، بل واتهمت نفسي في تلك اللحظة بالغباء

والبلادة أيضًا، فشارعنا يدعى إبراهيم الرفاعي ولم أفكر ولو مرة واحدة قبلها في السؤال عن معنى الكلمة. تركت الحاج صلاح يكمل روايته دون أن أرهقه بمزيد من الأسئلة.

يقبل "عم سيد" على مضض دخول الرفاعي إلى ورشته، لكنه يهدده بتكسير رأسه بمطرقته إلى فتات إذا لم يعثر على ما يدعي وجوده في الداخل. يسير الرفاعي إلى نهاية الورشة، تلك المنطقة التي تقع أسفل منور العمارة الرئيسي، الذي يفصله عن الورشة غطاء حديدي يقع أسفل شباك صالتنا. يطلب من عم سيد والحضور المتأهب التراجع نحو الخلف. يبدأ في ترديد كلمات غير مفهومه يليها دعاء ثم يحرك عصا خشبية بيديه، وإذا بثعبانين يأتيان زحفًا نحوه من نهاية الورشة.

- يا لهوي.

تضرب أمي بكف يدها على صدرها في رعب. هي تعتني دائمًا بنظافة منزلها. تقضي على الفيروسات والميكروبات بنسبة ٩٩,٩% حتى قبل ظهور مطهر الـ(ديتول) في منازل عائلات الطبقة المتوسطة بمصر، لكن ما الذي قد تفعله مع الثعابين؟ كيف ومن أين جاءت لورشة "عم سيد"؟ هل السبب هو الظلام الذي حل فجأة على المنور؟ فـ"أبو مشهور" بنى أدوارًا إضافية والبيت المجاور أصبح عمارة، بات منورنا المضيء مظلمًا، لم يعد شباك المنور منفذًا لدخول ضوء الشمس إلى الصالة. لا بد أن هذا هو السبب وراء وصول الأفاعي والثعابين! هذا

هو ما تعتقده، لكن الحاج صلاح لم يبد اي انطباع حول كلماتها، واكمل روايته.

يزحف الثعبانان في خنوع نحو الرفاعي، يمسك بهما ويضعهما في جوال. يطلب المال من "عم سيد" على خدماته فيقدمه له عن طيب خاطر. يقول الحاج صلاح إن هذه أول مرة يرى فيها حداد شارع إبراهيم الرفاعي الخارق خائفًا بهذه الصورة. هو ايضًا كان يبدو قلقًا ـاقصد الحاج صلاحـ وأمي أيضًا كانت مرتعبة. اخي؟ لا اتذكر اين كان في ذلك اليوم. أنا؟ شعرت ببعض الخوف في البداية لكن تذكرت شيئًا ما: أنني لمحت الليلة الماضية عند نهاية الصوان، رجلاً يرتدي ـعلى عكس باقي الحضورـ جلابية بيضاء. لا تبدو ملامحه صعيدية. هي ريفية أكثر من كونها صعيدية. أعتقد أنه نظر لي وابتسم. شاهدته بعدها يتمشى إلى الخارج، بعيدًا عن الأجواء الاحتفالية التي تتأهب لوصول الراقصة، يسير في ذلك الممر الضيق الذي شكله ظهر الصيوان وواجهة بيتنا والمنازل المجاورة، رأيته ينفض أكمامه أسفل شرفتنا وهو يواصل طريقه. سقط منها شيء ما، لكنه لا يقف لالتقاطه. لم أعرف ماهيته حينها، لكن الآن أدركت كيف خدع الرفاعي "عم سيد" والشارع بأكمله.

* * *

مر يومان أو ربما ثلاثة ـلا أتذكر حقًاـ على واقعة المصعد. باتت الثعابين تشغل حيزًا كبيرًا في عقلي. هي تسبح الآن داخل قنوات مخي.

أسمع فحيحها بينما أسير في الشارع، في المكتب وفي الفراش وعلى الأريكة غير المريحة في غرفة المعيشة. زادت قساوة الأمر بعدما استعدت ذكريات تلك الجمعة البعيدة، ما حدث في ورشة "عم سيد" وخدعة الرفاعي. أنا الآن لست طفلاً. أنا رجل ثلاثيني، لا يعرف شيئًا عن الرفاعية أو سبب تسمية شارع بيت عائلته القديم بإبراهيم الرفاعي. لا أهتم الآن بالشق الثاني في اللغز. إجابته لا تحمل أهمية كبرى وما حدث معي في مقر الحي منذ شهر سبب كاف للتراجع عن محاولة كشفه. سأقرأ عن الرفاعية. هذا هو ما يجب أن أفعله. البحث على الإنترنت هو الوسيلة المثلى لبداية المشوار. سأجد بعض المعلومات التي ستقودني لزيارة مكان أو اثنين، وهكذا سأتمكن على الأقل من التعرف على الرفاعية وعلاقتها بالثعابين، وربما -فقط ربما- سيتوقف صوت الفحيح داخل رأسي.

اصطدمت بالكثير من المعلومات. يبدو أن مسألة الرفاعية متشعبة وهائلة. هي طريقة صوفية لها مريديها في العراق ومصر وسوريا وغرب آسيا. تنسب إلى الفقيه أحمد بن علي الرفاعي الملقب بـ"أبو العلمين" و"شيخ الطرائق" و"أستاذ الجماعة". اكتفيت بهذه القشور بعدما حددت المكان الذي سأقصده للحصول على المزيد من الإجابات. سأذهب لزيارة مسجد الرفاعي بمنطقة القلعة. سأعثر هناك على كل الإجابات -هكذا أظن- التي أرغب في معرفتها عن الرفاعية. ما الذي قد يربط طريقة صوفية بالأفاعي؟ لماذا ظهر لي هذا الثعبان؟ هل كان كابوسًا؟ هل هي هلاوس؟ هل للأمر علاقة بذلك الثعبان الأمهق الذي وضعته

حون رقبتي في كوالالمبور وشعرت بملمسه البارد اللزج جاثمًا فوق ظهري طيلة يومين؟ ماذا عن علامة النابين؟ لم اقص على احد ما حدث: لا قصة رفاعي شارع إبراهيم الرفاعي ولا ثعبان المصعد ونابيه. تلك القصة الأخيرة بالذات لها أوجه عديدة، فهناك احتمالية لأن تكون مرتبطة بالدواء الذي أتناوله منذ فترة. أتذكر أنني قرأت نشرته الطبية ولفتت انتباهي مجموعة من الأعراض الجانبية المحتملة: جنون العظمة والهلاوس وغياب حدة العقل. سأزور هذا المسجد وبعدها قد تتغير الأمور. ربما أجد هناك يد العون، سأطلب المساعدة. سأقولها بصوت مرتفع: مدد يا رفاعي مدد!

* * *

وصلت لمسجد الرفاعي في الواحدة ظهرًا. لحسن الحظ، تزامن الأمر مع بدء جولة سياحية لرحلة مدرسية قادتها موظفة شابة بوزارة الآثار. البناء ضخم للغاية من الخارج ويقع في مواجهة مسجد السلطان حسن، لكن أنا لست هنا من أجل الأخير، بل من أجل الرفاعية. سيجب أن أصعد تلك السلالم التي تبدو طويلة لأصل لبوابة الجامع العملاقة. أول ما قابلني بعد المدخل كان ضريحًا، لكنه لا يخص الشيخ أحمد الرفاعي. هذه هي المفاجأة الأولى فـ"أبو العلمين" لم يُدفن هنا، بل "علي بن أبي شباك" من ذريته. هذا ليس الضريح الوحيد الموجود هنا. المسجد ضخم من الداخل وذو سقف مرتفع. ينقسم تقريبًا الى ثلاثة أجزاء: بيت الصلاة وهو الجزء الأروع في نظري والقاعة الملكية ومنطقة

الأضرحة: شاه إيران، الخديوي إسماعيل، زوجاته الثلاث وغيرهم دُفنوا هنا أيضًا، لكن أهم من يرقد في الداخل هي خوشيار هانم والدة الخديوي إسماعيل والسبب وراء بناء هذا الصرح. تشرح الموظفة الشابة الأمر بحماس للفتيات، لكن قلة منهن تهتم فعلاً بالأمر، فالأغلبية منشغلة بالتقاط صور الـ"سيلفي". لا يتحمل ذهني في الوضع الحالي معالجة كل هذه الأسماء والتواريخ، كما أنها حتى الآن لم تتحدث عن الطريقة الرفاعية وعلاقتها بالثعابين، لكن أكثر ما جذبني كانت القصة وراء بناء المسجد.

أستند إلى دكة التبليغ الواقعة في مواجهة المحراب ومنبر المؤذن، بينما أنصت إليها: المسجد بدأ في الأساس كزاوية صغيرة للطريقة الرفاعية، لكن خوشيار هانم قررت شراء الأراضي المحيطة به وهدم ما عليها وتشييد مسجدًا كبيرًا ليكون مدفنًا لها ولعائلتها من بعدها. بدأ تشييد المسجد في ١٨٦٩ لكن أقيمت أول صلاة به في ١٩١٢ وكان المشرفون على تصميمه وتشييده من أوروبا. هذا هو ما تقوله مرشدتي الشابة بشيء من الحسرة التي لا أجد لها سببًا. تواصل المجموعة جولتها وأنفصل عنها. أعجبني بيت الصلاة كثيرًا، أعمدته الرخامية الهائلة، سقفه المزين وتلك الزخارف. هل أرى ثعبانًا في الأعلى؟ لا هو مجرد انحناء في أحد الزخارف. ما الذي يحدث لي؟ أتوجه ناحية المحراب وأقول بصوت خافت "مدد يا رفاعي"، لكني لا أشعر بشيء. يبدو أنه لم يسمعني.

مجموعة الفتيات تنصرف الآن ويبدو أن المرشدة تستعد هي الأخرى للعودة إلى مكتبها. أقطع بيت الصلاة بخطوات سريعة لألحق بها عند ضريح "أبو شباك". أسألها إن كان يمكنها اقتطاع بضع دقائق من وقتها للإجابة على استفساري. توافق بترحاب فأسألها عن العلاقة بين الرفاعية والثعابين. تخبرني بأنها لا تعرف شيئًا عن الأمر، فهذه المسألة لا تندرج تحت بند ما درسته في علوم الآثار، لكن الشيخ طارق الرفاعي رئيس الطريقة هو من يمكنه الإجابة على سؤالي. هو يأتي غالبًا يوم الجمعة، لكن يمكنني التوجه إلى مكتبه الملحق بالجامع من الخارج، فربما يكون قد خالف عادته وجاء اليوم. أتسلم حذائي وأهبط السلم. بدا قصيرًا هذه المرة، ربما لأنني شعرت بقدر من الحماس وبحدس يخبرني بقرب وصولي إلى هدفي المنشود. أتوجه وفقًا للطريق الموصوف نحو المكتب وأنا أدندن كلمات تلك القصيدة الصوفية:

فللهِ قومٌ في الفراديسِ مذ أبتْ قلوبهم أن تسكن الجوَّ و السما

ففي العجلِ السرُّ الذي صدعتْ له رعودُ اللظىٰ في السفلِ من ظاهر العجىٰ

وأبرقَ برقٌ في نواحيهِ ساطعٌ يجلِّلُهُ من باطنِ الرجلِ في الشوىٰ

فأولُ صوتٍ كان منه بأنفه فشمته فاستوجبَ الحمدَ والثنا

وفاجأهُ وحيٌ من اللهِ آمرٌ و كان له ما كان في نفسه اكتمىٰ

فيا طاعتي لو كنتِ كنتُ مقربًا و معصيتي لولاكِ ما كنتُ مجتبىٰ

فما العلم إلا في الخلافِ وسرّه   وما النـورُ إلاّ في مخـالفـةِ النُهـى

لا افقه الكثير عن الصوفية. لا يمكنني تذوق الشعر. لا أظن أن كلمات هذه القصيدة تتماشى مع حالتي، مع ما أبحث عنه. لكن أسمع كلماتها تتردد داخل رأسي فيكررها لساني متلجلجًا بسبب صعوبة الكلمات. أعطس بعد البيت الرابع ثم أتوجه نحو المكتب وأنا أواصل المهمة بكلماته. يجلس ثلاثة رجال داخله أسفل مجموعة كثيرة من الصور لأناس يبدو أن لهم أهمية كبرى. سأعرف لاحقًا أنهم عدد من شيوخ الطريقة الرفاعية على مر التاريخ. الشيخ طارق ياسين الرفاعي ليس موجودًا الآن، لكن من ضمن الجالسين مدير مكتبه. أقدم له نفسي كشخص عادي يرغب في التعرف على الطريقة الرفاعية وتاريخ المسجد. لا يمكن أن أقتحم مجلسهم كأفعى تبخ سمومها على هيئة أسئلة غريبة. سأحتفظ بسؤالي الأكثر أهمية عن الثعابين والأفاعي للنهاية. يحدثني مدير المكتب عن أمور كثيرة، أهمها أن أتباع الطريقة الرفاعية في مصر يبلغون ثلاثة ملايين نسمة، وعن زهد الشيخ أحمد الرفاعي وكراماته. قدم لي قصة مختلفة عن تاريخ المسجد، فوفقًا لروايته فإن بعضًا من كرامات الرفاعي التي حظيت بها خوشيار هانم كانت السبب وراء تأسيس هذا الصرح الكبير. قررت أن ترد الجميل لـ"مولانا الرفاعي" عبر بناء هذا المسجد الضخم عوضًا عن الزاوية الصغيرة التي كانت موجودة سابقًا في هذا المكان.

يخرج الرجل علبة سجائر من جيب جلبابه ويقدم لي واحدة منها. أرفض بأدب. يبدو أن للزهد في الوقت الحالي وجوه جديدة، ولهذا

يفضل مستضيفي تدخين سجائر محلية بمكتبه الملحق بالمسجد من الخارج والاستغناء عن تلك المستوردة، فالأخيرة بها نوع من الترف الذي لا يتسق مع الصوفية. هذا هو تفسيري الوحيد لما حدث.

بعد الاستماع لشرح مبسط منه عن تاريخ الطريقة الرفاعية في مصر، أصل في النهاية لمرادي وأسأله بخصوص ما سمعته عن العلاقة بين الثعابين والرفاعية. يبتسم بينما ينفث دخانه. هل اتخذت سحابة الدخان هيئة أفعى؟ ربما. لا أدري لكنه يجيبني: قيل إن سيدنا الرفاعي كانت تخضع له الوحوش ومنها الثعابين، لكن أن تكون من مريديه لا يعني أنك ستصبح مثله. يخبرني أنه من متبعي الطريقة الرفاعية منذ خمسين عامًا، لكنه لم يتجرأ قط على الإمساك بثعبان، أصر على سؤالي. أحدثه عن مهنة "الرفاعية". يضحك بصوت مرتفع ويتقدم بجسده نحوي قائلاً إن من أتحدث عنهم ليسوا سوى حفنة من النصابين. لا ينتمون للرفاعية الحقيقية من قريب أو بعيد، بل هم مجموعة من الحواة الذين يسيطرون على الثعابين عبر مجموعة من الحيل لخداع البلهاء، استغلوا ما قيل عن الرفاعي ونسبوا أنفسهم إليه غصبًا، لكنهم لن "يكسبوا لا في دنيا ولا في آخرة". أستشعر أنه لا يرغب في إضافة المزيد. أشكره وأنهض في حيرة. لا أعرف إن كان ما وصلت له من حقائق عبر هذه الزيارة سيبعد رؤى الأفاعي من أمام عينيّ أو سيخرس فحيحها المستمر في أذني سواء في المكتب أو في الفراش، أو على الأريكة غير المريحة بغرفة المعيشة. أتوقف بينما أخطو خارج المكتب ثم التفت. هناك شيء ما يجب أن أفعله. إذا كنت سأوثق هذا اليوم فعلى الأقل يجب أن أعرف

اسم الرجل الذي اقتطع نصف ساعة من وقته ليتحدث معي. اسأله عن اسمه فيجيبني:

- إبراهيم زيد.. إبراهيم زيد الرفاعي.. إبراهيم الرفاعي.

تقرير عن الرفاعية

تحية إلى ارنستو ساباتو.

متى بدأت سلسلة الأحداث التي بت على يقين الآن من أنها ستفضي إلى فنائي؟ أسبح في بحر الذاكرة، فأرى وجوهًا أعجز عن رسم ملامحها، أبطالاً منسيين وقبورًا لمن كانوا. أصل إلى الشاطئ وكل ما أجده هو أطياف للموت تخبرني بأنه لا قبر سيحتضن جسدي. أرى ثعابين تتمايل وتتراقص فرحًا بهذا الخبر. أعود إلى أرض الواقع بعد أن لفظني محيط المُخيلة. أنظر إلى الأوراق التي أكتب فيها تفاصيل تحقيقي الدقيق والمنظم. أعلم أن نهايتي قد اقتربت. أنا هارب منذ أربعة أعوام. كنت أعلم أن هذه اللحظة ستصل في يوم من الأيام، لهذا شرعت منذ فترة في صياغة هذا التقرير لتبرئة ساحتي أمام كل من اتهمني بالجبن والخيانة والجحود. هجراني لعائلتي كان صعبًا، لكنه كان لحمايتهم في المقام الأول.

ظننت في البداية أن إدراكي لأبعاد كل ما يحدث بدأ برؤية ثعبان المصعد، لكني اكتشفت لاحقًا مدى جهلي، فالمسألة بدأت قبلها بوقت

طويل وأنا -ويا لغبائي- لم أفهم اللعبة كعادتي إلا في وقت متأخر. حتى حينما تقمصت دور الأديب الأحمق وقررت كتابة بعضًا من فصول حياتي لم ألحظ شيئًا. كيف لم أتمكن حينها من إبصار كل المؤشرات التي طاردتني منذ طفولتي؟ التُربي يرتدي خاتمًا على هيئة ثعبان، يتخذ سوار بلطجي المدرسة نفس الشكل، رفاعي يخرج ثعبانين من ورشة أسفل بيتنا القديم ويبتسم لي قبلها بليلة، جاثوم يتراقص ذيله كالحية، وشم أفعى على كتف ليديا، جسدها البارد، مغارة، جحور، فئران.. مررت أمام كل هذه الأحداث كسائح أبله يرغب في توثيق زيارته بالصور دون أن يدري ماهية ما يوجد أمامه أو خلفه، لكن الحدث الفارق، ذلك الذي دفعني لبداية تحقيقي وكتابة هذا التقرير بدأ بعد زيارة مسجد الرفاعي بأسبوع.

كانت رؤى الأفاعي لا تزال تطاردني. تزداد في كل ليلة مع عودتي إلى المنزل من المكتب، لكن تلك الليلة ما حدث كان حقيقيًا. أخرج من آخر القطارات وصولاً إلى محطة مترو المطرية العلوية، وبينما أنزل السلم تتعثر قدمي بشيء ما عند البسطة الكبيرة. إنه أحد المتسولين المُشردين يفترشها. ينهض ويمسكني من ياقة قميصي. أشتم رائحة أنفاسه العفنة بينما يبدو شعره الطويل الأشعث كألف أفعى مستعدة لعقري بأنياب خفية. يصرخ أن نهايتي قد اقتربت. لم تزعجني رائحة أنفاسه النتنة، أسنانه الصفراء المتسخة، أو حتى نبوءته بل ملمس يده البارد واللزج. نفس الملمس الذي شعرت به حينما لمست ثعبانًا لأول مرة في كوالالمبور. أنا واثق من أن لسانه كان مشقوقًا من النصف. هذه

ليست هلاوس. تملصت منه سريعًا وانطلقت أركض كالمخبول نحو المنزل. لم أقدر أن أقص عليها ما حدث. سترتعب. هي لا تعرف شيئًا عما يحدث ويجب أن يظل الوضع هكذا. ربما ستعرف حقيقة ما يحدث بعد سنوات كثيرة، حينما يصل هذا التقرير إلى يديها. ستعرف أن هذا الرجل المُشرد كان قد دخل في طور متأخر بمرحلة التحول، تلك التي أظن أنني وصلت إلى منتصفها الآن بالفعل.

شغلني أمر "الرفاعية" منذ هذه اللحظة، وحينما أقول الرفاعية لا أقصد مريدي الطريقة الصوفية، بل أولئك الملاعين الذين نسبوا أنفسهم إليها غصبًا بأفاعيهم وثعابينهم كغطاء لألاعيبهم القذرة. توصلت إلى مراتبهم، طريقة معيشتهم وطبيعتهم الحيوانية، لكن دائرة نفوذهم كانت أقوى بكثير مما ظننت.

لم أكن الأول ولن أصبح الأخير الذي سيحاول سبر أغوار هذا العالم الخفي المتستر تحت غطاء من الغموض والذي تعد معضلته الأساسية هو أن الكل يرى أطرافه دون إدراك كينونته الكلية، فمشكلة المحافل السرية تتعلق دائمًا بأذرعها التي تتجلى تحت نور الشمس دون أن يبصر أحد حقيقتها حتى ولو أعلنت عن نفسها عبر شعارات واضحة. الصيادلة على سبيل المثال يعملون معهم. هم رجال الثعبان والكأس كما يظهر على شعارهم، لا يوجد ما هو أوضح من هذا، لكن لم يُعالج أحد هذه الصورة في ذهنه ليصل للحقيقة. لا ألوم أحدًا فلا أحد حقًا يعلم حقيقة أبسط شيء عنهم: هل هم تجار أم أطباء؟ علمت لاحقًا أن كل الأدوية التي وُصفت لي لم تكن لعلاجي من

الأمراض التي ضربتني فجأة، بل عقاقير شيطانية لتسريع تحولي. أدركت هذا في وقت متأخر للأسف، لكن ما يهمني الآن هو سرد كل ما توصلت إليه عن تلك الطائفة.

الدرجة الأدنى فيهم هم الحواة الملاعين الذين يطوفون الموالد والقرى والنجوع والأحياء الشعبية لغسل عقول الفقراء. ليس لهم سلطة حقيقية على الثعابين، فكل ما يفعلونه هو تسريب الأفاعي لبيوت ضحاياهم في غفلة منهم ودهان عصيهم بزيت الحية الذي يجذبها إليهم مرة أخرى من مخابئها. هكذا يسلبون البسطاء عقولهم بكل سهولة، بل أن بعضهم يدهنون أجسادهم وعصيهم بمني الثعابين ولا يمارسون خدعهم إلا في موسم تزاوجها. يستخدمون الأفاعي فقط لتأتي منجذبة إليهم بفعل هذه الرائحة رغبة في الجماع، ليمسكوها من رقابها كما دربهم أسيادهم. أما القسم الذي يرددونه فهو مجرد مُحليات لعرضهم الزائف، فأي ثعبان أحمق قد يسلم نفسه طواعية لرجل يقول "أقسمت عليك أيها الثعبان أو الحية بهذه الكافات وما فيها من الكفايات وأسرارها التامة، فلا تؤذني بأنفاسك السامة، وأن تأتي أمامي خاضعًا خاشعًا وإلا كنت من العاصين؟" يا له من ثعبان مؤمن! هذه أمور لا تُعقل، لكن ما توصلت إليه أن الـ"كفكفية"، ذلك القسم السري والغامض الذي يرددونه قبلها هي عهد شيطاني يقطعونه مع أسيادهم من أجل الحماية ولكي تنصاع تلك الوحوش الزاحفة لهم فعلاً.

أما أفراد الدرجة التالية في هذه الطائفة، وهذه ليست عباراتي بل كلمات ابن تيمية " فتنزل الشياطين عليهم كما تدخل في بدن المصروع،

وحينئذ يباشرون النار والحيات والعقارب ويكون الشيطان هو الذى يفعل ذلك، كما يفعل ذلك من تقترن بهم الشياطين من إخوانهم الذين هم شر الخلق عند الناس". لا تهمني الرؤية الدينية في كلماته واصطلاحاته بقدر التصنيف ذاته، فقد سبقه الكثيرون في الحديث عن الرفاعية والثعابين، بل إن عبادة الثعبان أقدم من عبادة الرب ذاته. انتشرت في كل الحضارات في أزمنة قلت فيها سبل التواصل، في مصر القديمة، أمريكا الشمالية، الجنوبية، الوسطى، كمبوديا، الهند، الصين، كوريا، أستراليا، روما القديمة، اليونان القديمة. كل هذه الأمور التي قرأتها في الكتب بعد أن تحليت بالبصيرة اللازمة كشفت لي مدى قدم الطائفة، وبالتالي سر تغلغلها وقدرتها على البقاء والتماهي مع محيطها مهما اختلفت مسميات من يمارسونها بتغير اللغة، أو الجغرافيا، أو حتى الثقافة.

أما الدرجة الأعلى فهم في منزلة الكهنة وهم من يوسمون الضحايا الذين وقع عليهم الاختيار لبدء عملية التحول. قد يضطر أحدهم للتنكر كرفاعي من أبناء الدرجة الثانية في الطائفة لإجراء عملية الوسم وهذا هو ما حدث معي. بت الآن متأكدًا من مغزى تلك النظرة والابتسامة التي رأيتها من منظوري العلوي، من فوق العشة الخشبية بشرفة شقتنا في شارع إبراهيم الرفاعي. هكذا وسمني الكاهن وظل يجهزني طيلة تلك السنوات الطويلة لإكمال عملية تحولي. أدركت الأمر متأخرًا كالعادة. فكرت في الانضمام إليهم لأبدأ السلم من أدنى الدرجات أو حتى مساعدتهم كأحد أذرعهم الجلية، تلك الموجودة في

النور دون أن يبصرها أحد، لكني تراجعت بعدما علمت أن الموسومين ليس لهم مهرب، فعاجلاً أم آجلاً سيتحولون إلى ثعابين.

أدركت مدى تغلغل الطائفة حينما شاهدت صورة جامع الرفاعي على ورقة الجنيهات العشر، فلماذا من آلاف الآثار الموجودة في مصر وقع الاختيار على هذا المسجد بالذات؟ لا أظن أن لمتصوفي الرفاعية يد في هذا، بل إن الآخرين؛ أولئك الذين نسبوا أنفسهم إليهم غصبًا تمكنوا عبر جنودهم الموزعين في كل القطاعات والطبقات والأجهزة من تحقيق الأمر كرسالة طمأنينة لأنفسهم ولأتباعهم أنهم لا يزالون قادرين على فرض كلمتهم، لكن لا أحد منهم فرض كلمته عليّ -حتى الآن على الأقل- رغمًا عن انتصاف تحولي. فقدت نصف وزني وغارت عيناي في محجريهما. بدأ جسدي يفقد حرارته، تشققت بشرتي، أشعر أنها ستنسلخ قريبًا. لم أعد أطيق الشمس. بدأ جسدي يفرز مادة لزجة لا تشبه العرق، لكن لا زلت من الداخل محمد الفولي.

أنا هارب منذ أربعة أعوام، منذ ذلك اليوم الذي لم أعد فيه للمنزل. نصحتني بالسفر وحيدًا قبلها -قبل هروبي- لثلاثة أو أربعة أيام. قالت إنه يجب أن أبتعد قليلاً عن ضغط العمل. ظننت أن كل ما أعانيه مجرد ضغط. لا ألومها فأنا ماهر في إخفاء الأسرار، ربما تكون هذه المهارة قد زادت عندي بعدما أكد المتشرد أن نهايتي قد اقتربت. استمعت لنصيحتها. قلت إنه ربما -فقط ربما- تكون محقة ويتبين أن كل ما رأيته ومررت به كان نتاجًا لمخيلة نشطة تأثرت بتعاطي الدواء، لكن

ما رأيته أثناء الرحلة على أرض سيناء، في مدينة دهب، جعلني أتيقن من حقيقة كل شيء.

***

تُلقي برزمة الأوراق الهزيلة التي اصفّر لون بعضها وتوقن أن عقل الرجل الذي تمخض عن هذه الكلمات قد ولى قبل فترة طويلة من كتابتها. لم تتمكن عائلته من العثور على أي أثر له حتى الآن. مر خمسة عشرة عامًا على اختفائه دون مقدمات بعدما سافر إلى دهب. لا أحد يدري ماهية ما حدث. ظنوا في البداية أنه قد تعرض إلى حادث، لكن سحب كل مدخراته المصرفية والأقوال التي تناثرت هنا أو هناك بأن هذا أو ذاك قد رآه فندت هذه الاحتمالية.

لم يعلم أحد السبب الذي دفعه للاختفاء وهجر عائلته والانقطاع عن عمله وفسخ صداقاته، كانت النظرية الأكثر شيوعًا بين معارفه أنه ربما يكون قد هرب لأسباب أمنية، رغمًا عن أنه لم يشغل باله يومًا بالسياسة ومتاهاتها أو العاملين فيها، لكن الأجواء العامة للبلاد في تلك الفترة جعلت هذه الاحتمالية قابلة للترجيح. لم يصدق أحد بالطبع ما قيل إنه اختفى ليبدأ حياة جديدة مع فتاة أخرى أصغر سنًا. هذه الفرضية خرجت من لسان أحد الحاقدين، لكن زوجته إسراء كانت أول من واجهها.

ظلت متمسكة بالأمل طوال الشهور الأولى. ظنت أنه سيعود بتفسير مقنع حول هذا الاختفاء غير المبرر. هذا الهجران. هذه الخيانة.

تعاهدا الا يفترقا أبدًا وهي لم تُثقل عليه، فلماذا رحل وتركها وحيدة مع الطفلة؟ ظلت تردد هذا السؤال طيلة خمسة عشر عامًا ومع كل يوم يمر كان إيمانها به -بحبهما- ينكسر، حتى باتت في النهاية تمقته، بل تكره حتى سماع اسمه. لقد أخبرته في بداية تعارفهما أنها قد تتسامح مع أي شيء إلا الإهانة والخيانة، وهو قد ارتكب هذين الجرمين برحيله وهجرانه الغامض. ظل هذا الهجران غامضًا طيلة خمسة عشرة عامًا ومع مجيء تلك الرسالة ورزمة الأوراق الهزيلة التي أوصلها صديقه طه الكسار لعائلته، انكشفت الحقيقة. لم يصدق أحد بالطبع كل الهراء الذي قاله عن الرفاعية، لأن كل ما عكسه هذا الخبل المكتوب هو إن محمد الفولي أصيب بالجنون.

لم ترغب زوجته في استلام هذه الرزمة حينما طرق طه الكسار باب العائلة في صيف عام ٢٠٣٢. لكن ما ذنب الرجل؟ فكان يجلس في مكتبه كأي يوم وسمع صوت الهاتف يُخطره بتلقي رسالة على بريده وحينما أمسك المحمول اتسعت عيناه. الرسالة من الفولي الغائب منذ أربع سنوات. يطلب منه طباعة الملف الموجود فيها وقراءته، وتسليمه إلى عائلته بعد أحد عشر عامًا بالتمام والكمال. يوصيه بألا يخبر أحدًا بالأمر وأن يثق به كما فعل دائمًا. طه الكسار رجل غاية في الأمانة، لذا فاختيار الفولي له لم يكن من فراغ. بدماثته المعهودة قص عليها ما حدث وأظهر لها الرسالة، أخبرها أنه انتظر طيلة أحد عشر عامًا ليوصل هذه الأمانة. هاجت إسراء وماجت حينها، فكيف لم يبلغ الكسار العائلة بمسألة الرسالة طول هذه الفترة؟ قالت له إن أمانته حمقاء. انتزعت رزمة

الأوراق من بين يديه وأغلقت الباب في وجهه وانهارت باكية. سألت نفسها ألف سؤال. شعرت بأنها تتمايل على حافة الصراط الذي يفصل بين سلامة العقل والجنون. ما هي حكاية هذه الأوراق؟ مجرد قصص؟ يغيب طوال هذه الفترة وأول ما يصلها منه هو قصص! أهو نوع من العقاب؟ ألا يعرف أنها تكره القراءة؟ لكن عقاب على أي شيء؟ هو من يستحق العقاب على غدره.

تأتي ابنتها لترفعها من على الأرض بعدما باتت فتاة شابة غاية في الجمال، تمامًا كما تخيلها والدها قبل خبله المفترض. تستند الأم بذراعها على كتف دارين وتتمشى نحو الأريكة دون أن تتوقف عن البكاء. لم تترك رزمة الأوراق تسقط من يدها الأخرى، يبدو أنها تتشبث بها. هو مشهد غريب. لا يعرف المرء إن كانت تتشبث بها كطوق نجاة وأمل في عودة زوجها الغائب أم إن كانت تتشبث بها كلبؤة مفترسة تغرس مخالبها في فريسة طالما اشتهت التهامها. تلقي برزمة الأوراق بجوارها على الأريكة في النهاية بينما تمسح دموعها. تحكي للابنة بأنفاس متهدجة عن مرور طه الكسار على المنزل وما قاله بخصوص هذا الملف. تطلب منها الاتصال بصديق والدها المسكين والاعتذار له وأن تقرأ لها ما كتبه الفولي، فربما يصبح سماع الأمور بصوتها أفضل.

بكت دارين بعد قراءة القصة الأولى. كانت لتحب أن تراه يشيخ ويمرض ويذبل أمامها، بدلاً من أن تُحرم منه فجأة وهي في الرابعة. اتسعت عينا إسراء مع القصة الثانية. لم تكن تعلم كل هذه الأمور عن ماضيه، ثم انفجرت هي وابنتها في البكاء مع القصة الثالثة، فكيف

ولماذا هجرهما بعد كل هذا الحب الذي يبديه لهما فيها؟ وهكذا مع كل صفحة تبدلت مشاعرهما بين البكاء والضحك والاندهاش، حتى وصلتا إلى ذلك الجزء الغامض الخرف المُعنون بعبارة "تقرير عن الرفاعية". هذا الكلام لا يمكن أن يكتبه عاقل. لامت نفسها كثيرًا لأنها لم تلحظ كل التغيرات التي طرأت على رجلها. هو في النهاية ليس خائنًا، بل ضحية مسكينة لمرض غريب جعله يعيش في عالم مليء بالهلاوس والتصورات عن أفاعي وسحرة ومشعوذين وتنظيمات سرية دفعه للهروب والاختباء. لا تعلم إن كان حيًا أم ميتًا الآن. هذه هي الإجابة الوحيدة التي تنقصها لكي يرتاح بالها، لكي تنفض أخيرًا وفي النهاية هذا الحمل من على كاهلها.

تمسك الابنة الآن بعد أن رحلت عن بيت العائلة، بعد أن أصبح لها عائلتها الخاصة، برزمة الأوراق الهزيلة التي اصّفر بعضها وتعتقد أن عقل الرجل الذي تمخضت عنه هذه الكلمات ليس مخبولاً. هناك لغز وسر وراء الموضوع. ستقوم بقراءة التقرير ربما للمرة الألف فقد تعثر على دليل يقودها لكشف السر وراء اختفاءه.

* * *

إن هذا التقرير مكرس ليبقى بعد تحولي الذي بات وشيكًا لكل من يؤمن بمتابعة البحث عن خبايا هذا العالم المجهول والغرائبي. يرتكز بحثي على الوقائع ورغم أن الهوى والكراهية يضللاني كثيرًا إلا أني عقدت العزم على أن اكون دقيقًا. لا أسعى لاستثارة العطف نحوي، فقد سبق

وسلطت الضوء على وقائع منفرة ومقيتة ومفاجئة في حياتي دون ان يرمش لي جفن، لكن ما حدث في دهب قضى على اي رواسب للشكوك ولّدها عقلي الصدئ عن هذه الطائفة، وافنى أيضًا اي علاقة جمعتني بحياتي السابقة، تمامًا كقطع الحبل السري الذي يصل بين المولود وامه. لم تعد تغذيني الذكريات، بل تقودني الحقائق التي تخرج عن كل ما هو مألوف.

منذ وصولي في اليوم الأول تبينت مدى سطوة التنظيم على مظاهر الطبيعة وبين البشر، فحينما حاولت الاتحاد مع محيطي بحثًا عن الصفاء المنشود، هناك في منطقة الثقب الأزرق، شاهدت بين جموع الأسماك الملونة ثعبان البحر الأسود وهو يقطع رحلته من الأعماق قادمًا نحوي بكل سرعة، كسهم يخترق طبقة سائلة من الهواء. ثعابين البحر لا تسبح أبدًا بشكل رأسي. أعلم ما أقوله جيدًا. ارتعدت مفاصلي ثم تصلب جسدي وأنا أشاهده يقترب حتى انعدمت الرؤية وسط دوامة من الفقاعات. لم أدر بنفسي إلا وأنا على الشاطئ محاطًا بجمع من البشر وطعم المياه المالحة يثير غثياني، وبينما أفتح عينيّ شاهدت ظهر أحدهم يرحل وقد افترشه وشم مهول لأفعى الكوبرا. فهمت فحوى الرسالة أكثر بعد عودتي للفندق، فعلى عكس كل الفقرات الترفيهية الليلية في تلك المنشآت: الرقص الشعبي والنوبي أو التنورة، كان برنامج الليلة يتضمن فقرة لأحد الحواة. لم يعد هناك مجالاً للشك، جنودهم في الطبيعة وبين بني آدم لن يكفوا عن ملاحقتي. لذا قررت الابتعاد عن الفندق ليلتها وحجزت مع إحدى الشركات سهرة العشاء البدوي،

فقط لأنأى عن أي اتصال محتمل بهذه الطائفة، لكن قراري مجددًا كان مبنيًا على حماقتي وقصر نظري، فوسط كل هذا الرعب، لم أجد بُدًا من معاقرة الخمر. شعرت مع كل حركة للراقصة التي تمايلت أمامي وهي تؤدي فقرتها، أن الأرض من حولي تهزها تحركات مريبة ولدت اختلاجات أكثر غرابة في جسدي، وقرب نهاية الليلة بعدما سلب الخمر عقلي وجدتني أبتعد عن الحفل وأسير وسط الصحراء في نزهة بلا هدف فوق رمال باردة انعدم لونها، أسفل سماء لم أر شيئًا فيها سوى كوكبة حامل الثعبان، بل حتى أن سلاسل الجبال بدت كأفعى تتلوى. لا أعلم كم المسافة التي قطعتها حتى وجدت الراقصة تنتظرني أسفل سفح أحد الجبال وأمام مغارة أُضيء مدخلها بمشعلين. تبعتها بكل بساطة مستسلمًا لمصيري. نزعت عنها ملابسها بينما أقبل بشرتها البيضاء المثلجة بشغف ونهم رغمًا عن نتانة الرائحة في الداخل وبينما أستعد لألجها، تسرب جسدها من بين ذراعيّ كمسحوق ترابي يتساقط من قبضة غير محكمة. شرعت هيئتها تتبدل بين سمر، ليديا، ساشا، ميريام، مروة، الجاثوم، الصول لطفي، شريف، عم زينهم حتى اتخذت في النهاية شكل ثعبان المصعد المهيب. تراجعت مذعورًا وفقدت السيطرة على جسدي. بدا كأن جسدي يخص شخصًا غيري. وقفت عاجزًا صامتًا حتى فتح فكيه الواسعين وبينما يلمع ناباه قال لي كلمة واحدة:

- ازحف.

وكأن جسدي كان ينتظر سماع الأمر، وجدتني أنكفئ على وجهي وأطيع أوامره. تداعيت سريعًا، لم تفلح محاولات مخي للسيطرة على عضلاتي وأوصالي، وبدأت في سف تراب المغارة كسجين ذليل. استسلمت وتوقف عقلي عن مقاومته البائسة، لكن أدركت حينها أن شعائر تحولي قد بدأت. طائفة الرفاعية باتت قريبة من الحصول على عبد زاحف جديد. لم أتوقف عن الزحف طيلة ساعة لم يشح فيها ثعبان المصعد ذو الرأس المهيب بنظره عني حتى خارت قواي. شعرت أن رأسي قنبلة موقوتة أوشكت على الانفجار. دقات قلبي طبول سيرك قبل أن يؤدي البهلوان حركة خطرة. تتزايد ويرتفع صوتها. يضرب صداها جنبات رأسي بعنف وفجأة اكتسى ظلام دامس كل شيء.

لا أعرف كم مر من الوقت بعدها، لكن كل ما أتذكره هو أنني حينما فتحت عينيّ وجدتني أجلس داخل إحدى الصيدليات في وسط المدينة. أخبرني مديرها أني كنت أسير مترنحًا وتداعيت مغشيًا عليّ أمامها ليتمكنوا لاحقًا من إفاقتي. لم أصدقه بالطبع فحينما خرجت من صيدليته ونظرت لشعار الثعبان والكأس، فهمت للمرة الأولى الصلة التي تربط الصيادلة بالرفاعية، وأدركت أيضا أن أخي الأكبر ربما يكون قد سقط في براثنهم منذ فترة. ربما يكون قد بدأ في أخر الأيام التي رأيته فيها محاولة شق طريقه في مجال التسويق ليهرب من الطائفة؟ لم أرفض احتمالية أن يكون بريئًا، لكن لم أستبعد أيضًا أن يكون سعيه لشق طريق جديد محاولة لتوسيع نفوذ هذه الطائفة. قررت في النهاية أنه بعدما تعددت وتنوعت أشكال الملاحقة بهذه الصورة، فيجب أن أخرج

زوجتي وابنتي من الصورة. إذا كانوا يرغبون في اللعب ومحاولة الحصول على عبد زاحف جديد، فعليهم ملاحقته هو وحده، ويجب أن يسفوا التراب هم أيضًا قبل تحقيق رغبتهم. هكذا سحبت كل أرصدتي، ألقيت هاتفي المحمول وبدأت رحلة تنقلي من مدينة إلى أخرى.

كانت الأمور صعبة. نسيت المكاتب وهواءها المُكيف وعشت حياة المطاريد، لكني لم ألجأ للجبال والصحاري أو الكهوف، فقد تعلمت الدرس جيدًا. كان ملاذي الوحيد هو البنسيونات الرخيصة وأحيانًا الحدائق العامة. لم أشعر قط أنني في مأمن منهم. تيقنت من هذا في تلك الليلة بالإسكندرية لدى عودتي للبنسيون حينما طلب مني مديره الانتظار خارج الغرفة ومن خلف الباب سمعت صوتا يردد عبارات عجيبة قبل أن يقول "أقسمت عليك أيها الثعبان أو الحية بهذه الكافات وما فيها من الكفايات وأسرارها التامة، فلا تؤذني بأنفاسك السامة، وأن تأتي أمامي خاضعًا خاشعًا والا كنت من العاصين"، لأجد جسدي يسير رغمًا عني إلى داخل الغرفة وأركع أمامه، لكن قبل أن يضع جواله فوق رأسي، استعاد عقلي السيطرة هذه المرة بعد مقاومة مهولة لأركله وأنطلق هاربًا من جديد نحو المجهول.

أعرف أن أيامي باتت معدودة، وأن تحولي قادم لا محالة والأمر الغريب أنني بت واثقًا بعدما حدث في البنسيون أنني في النهاية سأذهب إليهم صاغرًا. لقد جعلتني حماقاتي أتصور لنفسي ألف مهرب من بين الاعيبهم، أنيابهم وبراثنهم، لكن هل يمكن لأي شخص الهرب من قدره المحتوم؟ أنهي تقريري هنا آملاً أن يصل إلى من يحبوني بعد أحد

عشر عامًا، ليقرأوا إحدى عشرة قصة قبل أن يصلوا إليه. ليعلموا الحقيقة، ليعلموا حقيقة أنني أنتظرهم كما ينتظروني، بينما ينتظرني آخرون.

***

ازدادت رزمة الأوراق الهزيلة صُفرة حتى بدت كأنها كُتبت في عهد سحيق بائد. حقبة البحث عن الفولي أصبحت من الماضي. حتى ابنته التي اعتادت أن تقرأها بصورة يومية بحثًا عن أي إشارة، دليل أو رمز قد يقودها لاكتشاف ماهية ما حدث، لم تعد تلق بالاً بالأمر. أرهقت نفسها كثيرًا في محاول العثور على تفسير لكل ما كتبه، لكنها لم تصل لشيء. ظنت في البداية أن السر يكمن وراء عدد السنوات والقصص، إلا أنه مع مرور الوقت باتت تلك الفكرة تتضاءل داخل رأسها حتى صارت هي والعدم سواء. كانت أحيانًا تتذكر بعض الأحداث التي كانت شريكة فيها وهي لا تزال طفلة، مثل صوت "أيمن حلاله" وهو يتردد في الشقة. لقد تزوجت ولا تزال أحيانًا تستمع لتلك الأغنية لاستعادة شيء ما من تلك الذكريات الجميلة والبعيدة.

كانت حينها لا تزال فتاة والدها الصغيرة، والدها الذي بعدما أنهى كتابة القصة وعثر على أغنيته القديمة لم يتوقف عن الاستماع إليها بأعلى صوت في الشقة. علّمها الكلمات فقط لكي تُغيظ والدتها التي لم تتقبل الأمر في البداية. فما هذا الخبل والانحطاط الفني الذي يزرعه في

عقل الطفلة؟ لانت في النهاية بعدما وجدتها قد حفظت الأغنية بالكامل. كانت تطلبها بالاسم:

- بابا عايزة أغنية الفار.

تقبلت الأم في النهاية أن تحفظ ابنتها الصغيرة ذات السنوات الأربع اغنية علم زوجها بأمرها للمرة الأولى من بلطجي حينما كان طالبًا في الثانوية العامة. وافقت فقط لأنها رأت أن الأمر يسعدها. لا تزال دارين تسعد كثيرًا كلما استمعت لها، بل أنها جعلتها من ضمن اغنيات زوجها المفضلة. هو في عمله الآن. تعتقد أنها محظوظة للغاية. لا يوجد رجل يُسعد زوجته مثله، فأي رجل كان سيفهم ما تحبه زوجته لدرجة أن يهديها ثعبانًا؟ كان لكتابات والدها وبالأخص ذلك التقرير الأخير أثرًا كبيرًا عليها. دارين بها نوع من الغرابة، تمامًا مثل والدها. كانت تخشى الثعابين في البداية، لكنها خافت أن ينتهي بها المطاف مخبولة مثله، لهذا قررت أن تكسر هذا الخوف بالتجرؤ على التعرف عليها عن قرب والإمساك بها. فعلت نفس الأمر مع ال"رفاعية". أصبحت ضيفة دائمة على الموالد التي يظهرون بها. في الظاهر بين أصدقائها ومعارفها كانت تتعامل مع الأمر على أنه أحد أشكال الولع بالفولكلور، لكنها في الحقيقة كانت تسعى لكسر ذلك الخوف بداخلها.

هذا هو عيد ميلادها الأول في بيت زوجها وفوجئت بالأمس بأغرب وأجمل مفاجأة في حياتها: كانت قد عادت للتو إلى المنزل لتجده هناك بالفعل على غير عادته. طبع قبلة على وجنتها ثم أمسك بيدها

ودفعها أمامه برقة. طالبها أن تغمض عينيها لتذهب معه إلى غرفة المكتب. حينما فتحت عينيها وجدته: ثعبان متوسط الحجم داخل حوض من الزجاج. شعرت بنوع مفاجئ من الألفة تجاهه، ربما لأنه على عكس بقية الثعابين التي رأتها وأمسكت بها كان ضيق العينين، تمامًا مثلها. لم يتركها رجلها تقضي وقتًا طويلاً مع الثعبان، فكانا على موعد للخروج للتنزه وتناول الغداء في الخارج. هو رجل مثالي وأمام دلالها وافق على مقترحها المجنون. ستُخرج الحروف القديمة التي جلبها لها والدها وهي طفلة وتسكبها في الحوض ليختار الثعبان اسمه بنفسه. كان أمرًا مجنونًا ووليد الصدفة، ربما لهذا لم تتذكر أنها قامت به من الأساس حتى ظهيرة اليوم التالي حينما توجهت نحو الغرفة لتلقي التحية على هديتها الجديدة. شعرت أن الثعبان كان يترقب وصولها، فبمجرد دخولها للحجرة وجدته ينتصب في الحوض. ليست وضعية هجومية. ليست أيضًا وضعية تأهب. هناك نوع من اللهفة بها. هذا هو ما استشعرته وهي تتوجه نحو الحوض. اتسعت عيناها الضيقتان: لقد رتب الثعبان بعض الأحرف اللاتينية التي سكبتها بالفعل. كون جملة ما. هي ليست الإنجليزية، بل الإسبانية. تراجعت أكثر نحو الخلف ثم تجمدت في مكانها لدقيقة كاملة كأنها الدهر بأكمله. انتفضت بعدها وركضت نحو جهاز الكمبيوتر. تعرف أن هذه هي الإسبانية، لكن لا تعرف معنى الكلمات. تنسخها في أحد مواقع الترجمة:

Soy tu padre

....

جار الترجمة

أنا والدك.

تنهض مذعورة من على المقعد. تخرج من الغرفة وتتوجه نحو الصالة. ترتعش يداها وهي تتصل بزوجها. تبكي بذعر. تصرخ فيه. تطلب منه أن يأتي. يصل وتقصُّ عليه كل ما حدث. يعض على شفتيه. يسألها إن كانت قد توقفت عن تناول أدويتها. تسأله عن أي أدوية يتحدث؟ يضرب بيده على رأسه في عصبية ثم يفتح باب الشرفة ويدخلها ليتحدث في هاتفه مع أحدهم ويدخن سيجارة. لا تزال تبكي، لكنها تنظر إلى الحقيبة البلاستيكية الموجودة فوق المنضدة. ترى ذلك الشعار: "الثعبان والكأس" وتحته اسم "صيدلية دكتور سليم الميرغني". سألت سليم ذات مرة عن السبب وراء ارتباط هذا الشعار بالصيادلة. حدثها زوجها عن أسطورة إغريقية تتعلق بالعلاج بالثعابين. لم تفهم منه شيئًا. نظرية والدها تبدو أعقل. والدها؟ تذكرت الآن أنه في الغرفة على هيئة ثعبان في حوض. تتوجه نحوها مجددًا. لا وجود للثعبان ضيق العينين. هناك حوض سخيف يضم بعض الأسماك الملونة وعليه ملصق يحمل اسم مدينة دهب. هل ذهب عقلها؟ لا تدري. لا تعلم أي شيء سوى أنها في حاجة لقراءة شيء ما لكي تهدأ، ليس شيء ما، بل شيء واحد فقط. تفتح درج المكتب وتخرج رزمة هزيلة اصفرت أوراقها بالكامل. تُقلبها حتى تصل إلى الصفحات المنشودة، تلك التي تبدأ بواحدة تصدرتها عبارة "تقرير عن الرفاعية".

المحتويات

الصفحة


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

أحداث غريبة وقعت في حيّ المطرية القاهري الشهير عند بداية الألفية. أبطالها السرّيون عنتر عضمة وعلاء بوكس والمطرب الشعبي أيمن حلالة. بين مؤسسة العم زينهم الترفيهية ومدرسة عمر بن الخطّاب الثانوية وبين العاصمة الأرجنتينية آلاف الأميال، فكيف جاءت القلعة إلى جوار البحر؟ وما هي الحقيقة وراء المطرية؟ وهل تنسب إلى الوليّ الصالح سيدي المطراوي حقًا أم هو من ينسب إليها، أم هل يكمن سِر التسمية في تلك الشجرة التي استظلّت بها مريم العذراء أثناء هروبها مع المسيح رضيعا إلى مصر، والتي لا يزال جذعها المتيبّس باقيًا وسط بلوكات الإسكان الشعبي في ذلك الحي العتيق. وما علاقة حواة الأفاعي ممن ينسبون أنفسهم إلى القطب الصوفي أحمد الرفاعي بكلّ ذلك؟ هل لهم حقًا تنظيم خفي يتلاعب بمصائر من يقع في طريقهم؟ بخلاف الراوي الموحد، الذي يسرد قصص هذه المجموعة كلّها، فهناك خيط آخر ينظم الحكايات في مصفوفة أقرب إلى أن تكون روايةً مهشّمة أو متتالية قصصية بحسب التصنيف الذي أحدثه المعلّم إدوار الخرّاط واتبعه من بعده كتّاب عديدون..

*

بعد خبرة في الترجمة الصحفية، برز اسم محمد الفولي خلال السنتين الأخيرتين كمترجم لعدد من الأعمال الأدبية من أمريكا اللاتينية، وهنا يكشف لنا لأول مرة وجهه كقصّاص بارع، نلمح بين ثنايا سرده تأثره بنبرة الدعابة اللاتينية المميزة، وها هو في القصة الأخيرة التي يحمل الكتاب عنوانها، يحيل إلى نصّ "تقرير عن العميان" من رواية "أبطال وقبور" للأديب الأرجنتيني إرنستو ساباتو. فيقدم له الفولي التحية من حيث يعارض نصه.

محمد الفولي: صحفي ومترجم مصري. درس اللغة الإسبانية وآدابها في جامعة القاهرة. ويعمل محررا رياضيا بمكتب وكالة الأنباء الإسبانية بالقاهرة. صدر له عدد من الترجمات من بينها "هذيان" للاورا ريستريبو، و "الشرق يبدأ في القاهرة" لإكتور أباد فاسيولينسي. فضلا عن ترجمته لعدد من أدبيات كرة القدم من أهمها "أغرب الحكايات في تاريخ المونديال".





ISBN 978-977-803-070-9